وقفات قرآنية

د. خالد النجار

الألوكة
www.alukah.net
00201156800204

وقفات قرآنية

د/ خالد سعد النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل على عبده الكتاب، ونصر الحق بالحق وهزم الأحزاب، وأعز جنده وجعل كيد الكافرين في تباب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عبده ورسوله، ركب البعير ونام على الحصير وخصف نعله ورتق الثياب. أما بعد:

فهذه مجموعة بحوث قرآنية كنت كتبتها على فترات متنوعة، ونشرت جميعها بفضل الله وكرمه على الكثير من المواقع الالكترونية والمجلات الورقية، ورأيت أن أجمعها في هذا السفر لعل الله ينفع به قارئه وجامعه وناشرة.

ودوما نسأل الله القبول والتوفيق والرشاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هديه إلى يوم الدين.

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

مصر

00201229596658

بسم الله الرحمن الرحيم

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (268) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (269) وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (270)﴾

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ﴾ [سورة البقرة:265] الأمثال تجلي المعنى وتبهج السامع خاصة كلما كانت أكثر تركيبا ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ خالصا له وحده لا رياء فيه ولا سمعة ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [سورة البقرة:265] تحقيقًا وتَيَقنًا بمثوبة الله تعالى لهم على إنفاقهم في سبيله، قال الشعبي، وقتادة، والسُّدي: معناه «وتيقنًا»، أي: إن نفوسهم لها بصائر متأكدة، فهي تثبتهم على الإنفاق.

** وقيل: أنهم يثبتون من أنفسهم على الإيمان بهذا العمل الذي هو إخراج المال الذي هو عديل الروح في سبيل الله ابتغاء رضًا، فإنفاق المال من أعظم ما ترسخ به الطاعة في النفس، لأن المال ليس أمرا هينا على النفس وشاق عليها، فهم يعملون لتثبيت النفس على الإيمان، وما ترجو من الله بهذا العمل الصعب، لأنها إذا ثبتت على الأمر الصعب انقادت وذلت له.

** هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص والتثبيت من النفس هو الصدق في البذل فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان إن نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية إحداهما طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضا من أغراضه الدنيوية وهذا حال أكثر المنفقين والآفة الثانية ضعف نفسه وتقاعسها وترددها هل يفعل أم لا فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله والآفة الثانية تزول بالتثبيت فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل وهذا هو صدقها وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك كان مثله كجنة

** قال الفخر الرازي: تقرر في الحكمة الخلقية أن تكرر الأفعال هو الذي يوجب حصول الملكة الفاضلة في النفس، بحيث تنساق عقب حصولها إلى الكمالات باختيارها، وبلا كلفة ولا ضجر. فالإيمان يأمر بالصدقة وأفعال البر، والذي يأتي تلك المأمورات يثبت نفسه بأخلاق الإيمان، وعلى هذا الوجه تصير الآية تحريضا على «تكرير الإنفاق»

** قال الزمخشري: فإن قلت: فما معنى التبعيض؟

قلت: معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معًا فهو الذي ثبتها كلها ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [سورة الصف:11]

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ المكان من الأرض ذو شجر كثير بحيث يجن -أي يستر- الكائن فيه، وأكثر ما تطلق الجنة في كلامهم على ذات الشجر المثمر المختلف الأصناف، فأما ما كان مغروسا نخيلا بحتا فإنما يسمى «حائطا».

والمشتهر في بلاد العرب من الشجر المثمر غير النخيل هو الكَرْم وثمره العنب أشهر الثمار في بلدهم بعد التمر فقد كان الغالب على بلاد اليمن والطائف.

ومن ثمارهم الرمان، فإن كان النخل معها قيل لها جنة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ [سورة الأنعام:141] [الأنعام:141] والعريش يكون للكرم

﴿بِرَبْوَةٍ﴾ المرتفع من الأرض، وخص الربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها، لأن ريع الرُبا أكثر، ومن السيل والبرد أبعد ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر شديد ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [سورة البقرة:265] فأثمرت ضعفين مما أثمرته غيرها من الجنان، أو ضعفين مما كانت تثمره قبلا.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [سورة البقرة:265] مطر خفيف، يكفيها لجودة تربتها، وحسن موقعها، فهي لا تمحل أبدا، فالندى والمطر اللين الخفيف كافٍ في سقيها وريها حتى تؤتي ثمارها مضاعفًا مرتين.

والمعنى: إن الطل يكفيها وينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين، وذلك أكرم الأرض وطيبها، فلا تنقص ثمرتها بنقصان المطر.

** وقيل: المعنى فإن لم يصبها وابل فيتضاعف ثمرها، وأصابها طل فأخرجت دون ما تخرجه بالوابل، فهي على كل حال لا تخلو من أن تثمر. لأن زرع الطل أضعف من زرع المطر وأقل ريعًا.

** قال الزمخشري: مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، فكما أن كل واحد من المطرين يُضعِف أُكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة، كانت أو قليلة، بعد أن يطلب بها وجه الله ويبذل فيها الوسع، زاكية عند الله، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده.

** وقد يكون المعنى: وكذلك الإنسان الجواد البر إن أصابه خير كثير أغدق ووسع في الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره، فخيره دائم، وبره لا ينقطع.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فواعد به المنفقين ابتغاء مرضاته وتثبيتًا من أنفسهم بعظم الأجر وحسن المثوبة، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدا، بل يتقبله الله ويكثره وينميه.

والله لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، من رياء وإخلاص، وفيه وعد ووعيد.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ استفهام إنكار وتحذير كما في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [سورة الحجرات:12] [الحجرات:12]، والمعنى على التبعيد والنفي، أي: ما يود أحد ذلك؟.. أيحب أحدكم أيها المنفقون في غير مرضاة الله تعالى بالرياء والمن والأذى ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [سورة البقرة:266] نص على النخيل دون الثمرة، وعلى ثمرة الكَرْم دون الكَرْم، وذلك لأن أعظم منافع الكَرْم هو ثمرته دون أصله، والنخيل كله منافع عظيمة، توازي منفعة ثمرته من خشبه وجريده وليفه وخوصه ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [سورة البقرة:266] هذا يدل على أنه فيه أشجار غير النخيل والكَرْم ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ [سورة البقرة:266] ريح شديد ﴿فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [سورة البقرة:266] فهذا مفاجأة الخيبة في حين رجاء المنفعة.. وهكذا الذي ينفق أمواله رئاء الناس يخسرها كلها في وقت هو أحوج إليها من حاجة الرجل العجوز وأطفاله الصغار، وذلك يوم القيامة.

** روى البخاري عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ [سورة البقرة:266] قَالُوا اللَّهُ أَعْلَمُ فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ يمتن تعالى على عباده بما يبين لهم من الآيات في العقائد والعبادات والمعاملات والآداب ليتفكروا فيها فيهتدوا على ضوئها إلى كمالهم وسعادتهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [سورة البقرة:267] من جيّد أموالكم وأصلحها ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة:267] الحبوب

والثمار ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ لا تقصدوا ﴿الْخَبِيثَ﴾ الرديء ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [سورة البقرة:267] وأنتم لو أعطيتموه في حق لكم ما كنتم لتقبلوه لولا أنكم تغمضوا وتتساهلون في قبوله، وهذا منه تعالى تأديب لهم وتربية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [سورة البقرة:267] الغني الذي لا يحتاج إلى ما تكثر حاجة غالب الناس إليه، والحميد مبالغة: أي شديد الحمد، شاكر لمن تصدق صدقة طيبة.

أو محمود في الأرض والسماء، وفي الأولى والأخرى، لما أفاض ويفيض من النعم على خلقه، أي فتخلقوا بذلك لأن صفات الله تعالى كمالات، فكونوا أغنياء القلوب عن الشح محمودين على صدقاتكم، ولا تعطوا صدقات تؤذن بالشح ولا تشكرون عليها.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [سورة البقرة:268] أي بخوفكم منه ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ فينفقون أموالهم في الشر والفساد ويبخلون بها في الخير ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [سورة البقرة:268] أي الرزق الواسع الحسن ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الفضل العليم بالخلق

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة:269] الحكمة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم، فلذلك قيل: نزلت الحكمة على ألسنة العرب، وعقول اليونان، وأيدي الصينيين. وهي مشتقة من الحَكم -وهو المنع- لأنها تمنع صاحبها من الوقوع في الغلط والضلال، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [سورة هود:1] [هود:1] ومنه سميت الحديدة التي في اللجام وتجعل في فم الفرس: حكمة.

** ومن يشاء الله تعالى إيتاءه الحكمة هو الذي يخلقه مستعدا إلى ذلك، من سلامة عقله واعتدال قواه، حتى يكون قابلا لفهم الحقائق منقادا إلى الحق إذا لاح له، لا يصده عن ذلك هوى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة، ثم ييسر له ذلك من حضور الدعاة وسلامة البقعة من العتاة، فإذا انضم إلى ذلك توجهه إلى الله بأن يزيد أسبابه تيسيرا ويمنع عنه ما يحجب الفهم فقد كمل له التيسير.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة:269] فليطلب العاقل الحكمة قبل طلب الدنيا، هذه تذكرة ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾

قال الفخر الرازي: "نبه على أن الأمر الذي لأجله وجب ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل، ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والحس من حيث إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة، ولا شك أن حكم الحكمة هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيغ، وحكم الحس والشهوة يوقع في البلاء والمحنة. فتعقيب قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً﴾ [سورة البقرة:268] [البقرة:268] بقوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ إشارة إلى أن ما وعد به تعالى من المغفرة والفضل من الحكمة، وأن الحكمة كلها من عطاء الله تعالى، وأن الله تعالى يعطيها من يشاء.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ [سورة البقرة:270] يريد قليلة أو كثيرة من الجيد أو الرديء ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [سورة البقرة:270] فما كان مبتغىً به وجه الله ومن جيد المال فسوف يكفر به السيئات ويرفع به الدرجات، وما كان رديئًا ونذيرًا لغير الله تعالى فإن أهله ظالمون وسَيُغْرمون أجر نفقاتهم ونذورهم لغير الله ولا يجدون من يثيبهم على شيء منها لأنهم ظالمون فيها حيث وضعوها في غير موضعها ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ

«بطر النعمة» من أبشع أنواع البطر وأشدها على النفس وأسوءها عاقبة ومذمة، خاصة وأن صاحبه انقطعت عنه الحجة وسقطت منه المعذرة، فصدور العصيان ممن هو في غاية الإنعام أقبح القبائح وغاية الخسران، وقد كان الأولى بالمتنعمين لزوم عتبة الشكر والاستمساك بعروة الحمد، ولكنها النفس الدنيئة التي تعلقت بالدنيا واطمأنت لها حتى تناست يوم الجزاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الواقعة:45] [الواقعة:45] تعليلٌ لابتلائِهم بما ذُكِرَ من العذابِ أي إنَّهم كانُوا قبلَ ما ذُكِرَ من سُوءِ العذابِ في الدُّنيا منعّمينَ بأنواعِ النعمِ من المآكلِ والمشاربِ والمساكنِ الطيبةِ والمقاماتِ الكريمةِ منهمكينَ في الشهواتِ فلا جرمَ عُذبُوا بنقائضِها. [تفسير أبي السعود: 262/6]

قال السعدي أي: قد ألهتهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا هو الترف الذي ذمهم الله عليه. [تفسير السعدي: 834/1]

وقال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [سورة المزمل:11] [المزمل: 11] النَّعْمَةِ: الترفُّه، فطلبُ اللذات والتنعُّم شَغَلهم عن التبتُّل حتى افترقت قلوبُهم وأرواحهم، وأشركوا مع الله غيره. [البحر المديد: 442/6]

قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: توبيخا لهم بأنهم كذبوا لغرورهم وبطرهم بسعة حالهم، وتهديدا لهم بأن الذي قال ﴿ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ سيزيل عنهم ذلك التنعم. وفي هذا الوصف تعريض بالتهكم، لأنهم كانوا يعدون سعة العيش ووفرة المال كمالا، وكانوا يعيرون الذين آمنوا بالخصاصة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة المطففين:وَمَا لِلْمُكَذِّبِينَ-وَيْلٌ ﴿١٠﴾]. [المطففين: 29-30]، وجعلهم ذوي النعمة -المفتوحة النون- للإشارة إلى قصارى حظهم في هذه الحياة هي النعمة، أي الانطلاق في العيش بلا ضيق، والاستظلال بالبيوت والجنات، والإقبال على لذيذ

الطعوم ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والميسر، وهم معرضون عن كمالات النفس ولذة الاهتداء والمعرفة، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الفرقان:44] [الفرقان:44]

والإنسان متى استرسل مع لذاته وشهواته ربما ارتكب من الحماقات ما هو أشبه بالجنون، وقديما قالوا: «إذا جاء الترف أصاب الحضارة التلف».. ففي أوروبا نجد الأسبان قد أدمنوا ما يعرف بمصارعة الثيران حيث يبرزون شجاعتهم أمام ثيران ضخمة وخزا بالسيوف على مرأى ومسمع من جمعيات الرفق بالحيوان التي صدعونا بشعاراتها، بل للأسبان يوما في العام تجري الثيران في الشوارع والطرقات ويتعرض لها الشباب في مهرجان كارثي لا يثمر سوى آلاف الجرحى وربما القتلى، كما يحتفل الأسبان كل عام ولمدة أسبوع كامل بمهرجان الطماطم، حيث يتراشق أكثر من أربعين ألف شخص في مقاطعة «فالنسيا» بالطماطم فيتلفون في معاركهم الهزلية تلك نحوا من مائة طن منها. وفي سويسرا مهرجان للبصل يقام في شهر نوفمبر من كل عام، يتفنن فيه المشاركون في تصميم أشكال فنية بديعة من البصل، وفي كافة الدول الأوروبية أقيمت فنادق للكلاب ومنهم من وهب ثروته لكلبه، وفي عالمنا العرب تسرب إلينا بعض الهوس بموسوعة الأرقام القياسية ولأننا لا باع لنا في دنيا العلوم والتكنولوجيا والاختراعات فصرنا نسمع أن أكبر طبق تبولة أو بقلاوة، وأكبر صينية كبة، وأكبر سلة فواكه، وأكبر قِدْرة فول وغيرها.

وإن تعجب فلك أن تعجب مما جاء في تقرير نشرته منظمة الأغذية والزراعة العالمية «فاو» أن الجفاف والحرب في شرق أفريقيا خلفا أكثر من عشرين مليون شخص وهم في حاجة ماسة للمعونات الغذائية الطارئة. وأضافت أن 6500 شخص يموتون يوميا في أفريقيا بسبب الجوع، وأن مائة مليون طفل يعاني من الجوع في هذه القارة الغنية بالثروات. ومن المفارقات التي أظهرها التقرير أن أعداد البدناء في العالم تجاوز الآن المليار نسمة، وهي نفس أعداد من يعانون من سوء التغذية!!

ولذلك لم يذكر القرآن الكريم الترف إلا في موضع الذم، لأنه بريد الجحود قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا

سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف:26-30] ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان:18]

فالإغراق في التنعُّم والتَّرف سبب لنُزول بلاء الله وعقابه، والحرمان من النَّصر والظفر؛ ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ [المؤمنون: 64 – 65]، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 11- 13]

وأصحاب الترف أصحب رأي معوج وحقائق مقلوبة ومنطق سقيم، فيستدلون بالنعمة على محبة الله لهم رغم معصيتهم وعنادهم، قال تعالى" ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: 34 – 35] ولذلك رد الله عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ:36-37]

بل إنهم لا يقتصرون في غيهم على أنفسهم بل هم دعاة فتنة وخراب، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء:16]

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون:33-38]

والترف داء الأمم على مر الزمان، وهو الداء العضال والمرض القتال، الذي يحول المرء إلى وحش كاسر لا هم له إلا شهوته ولذته، فتموت نخوته وتضمحل غيرته وتفتر همته، فإن استشرى الترف في أُمَّة، ذهب بعزِّها، وأورثها كسلًا وخمولًا، ورُكونًا إلى الدنيا، ومحبَّة لها، وحرصًا عليها، فلا يُرتجى منها نفعٌ، ولا يُنتظر منها دفاعٌ عن الحق. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ

مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[هود: 116]

ومن كنوز الوصايا النبوية قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين) [رواه أحمد]

ورغم أن الترف شيد على الغنى وبني على بحبوحة العيش لكنه ليس بلازم له، فكم من غني يتقي في ماله ربه ويصل به رحمه، وكم من فقير نهم لتحصيل الملذات وإن غرق في الديون أو امتدت يديه للحرام.. قال -صلى الله عليه وسلم-: (لا بأس بالغنى لمن اتقى والصحة لمن اتقى خير من الغنى وطيب النفس من النعيم). قال محمد بن كعب: الغني إذا اتقى آتاه اللّه أجره مرتين لأنه امتحنه فوجده صادقًا وليس من امتحن كمن لا يمتحن.

بسم الله الرحمن الرحيم

عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا

قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة مريم:48]

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة مريم:48] أي رجائي في ربي كبير أن لا أشقى بعبادته كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام. قال تعالى مخبرًا عنه فلما حقق ما واعدهم به من هجرته لديارهم الى ديار القدس تاركًا أباه وأهله وداره كافأه بأحسن حيث أعطيناه ولدين يأنس بهما في وحشته وهما إسحق ويعقوب وكلا منهما جعلناه نبيا رسولًا. ووهبنا لجمعيهم وهم ثلاثة الوالد إبراهيم وولداه اسحق ويعقوب بن اسحق عليهم السلام من رحمتنا الخير العظيم من المال والولد والرزق الحسن هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [سورة مريم:49] وهو ابن ولده اسحق ﴿وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا﴾. وقوله تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [سورة مريم:50] هذا إنعام آخر مقابل الهجرة في سبيل الله حيث يجعل الله تعالى لهم لسان الصدق في الآخرة فسائر أهل الإيمان الإلهية يثنون على إبراهيم وذريته بأطيب الثناء وأحسنه وهو لسان الصدق العلي الرفيع الذي حظى به إبراهيم وولديه إكرامًا من الله تعالى وإنعامًا عليهم جزاء صدق إبراهيم وصبره وبالتالي هجرته للأصنام وعابديها[1].

ولما أمره بهجره الزمان الطويل أخبره بأنه يتمثل أمره ويعتزله وقومه ومعبوداتهم، فهاجر إلى الشام قيل أو إلى حران وكانوا بأرض كوثاء، وفي هجرته هذه تزوج سارة ولقي الجبار الذي أخدم سارة هاجر، والأظهر أن قوله ﴿وأدعو ربي﴾ معناه وأعبد ربي كما جاء في الحديث: «الدعاء العبادة» لقوله ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة

(1) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري: 2/ 414

مريم:49] ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعراء ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ [سورة الشعراء:83] إلى آخره، وعرض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًا﴾ مع التواضع لله في كلمة ﴿عسى﴾ وما فيه من هضم النفس.

وفي ﴿عسى﴾ ترج في ضمنه خوف شديد، ولما فارق الكفار وأرضهم أبدله منهم أولادًا أنبياء، والأرض المقدّسة فكان فيها ويتردد إلى مكة فولد له إسحاق وابنه يعقوب تسلية له وشدًّا لعضده، وإسحاق أصغر من إسماعيل، ولما حملت هاجر بإسماعيل غارت سارة ثم حملت بإسحاق.

وقوله ﴿من رحمتنا﴾ قال الحسن: هي النبوة. وقال الكلبي: المال والولد، والأحسن أن يكون الخير الديني والدنيوي من العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة.

ولسان الصدق: الثناء الحسن الباقي عليهم آخر الأبد. قاله ابن عباس، وعبر باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية[1].

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة مريم:48] أي: عسى ألا أشقى بعبادته، أو: لا أخيب في طلبه، كما شقيتم أنتم في عبادة آلهتكم وخبتم. ففيه تعريض بهم، وفي تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع وحسن الأدب، والتنبيه على أن الإجابة من طريق الفضل والكرم، لا من طريق الوجوب، وأن العبرة بالخاتمة والسعادة، وفي ذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى[2].

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة مريم:48] فيه من الدلالة على مزيد أدبه عليه السلام مع ربه عز وجل ما فيه، ومقام الخلة يقتضي ذلك فإن من لا أدب له لا يصلح أن يتخذ خليلًا[3].

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة مريم:48] أي خائبا ضائعا غير مقبول في دعائي وعبادتي، فإن ذلك هو الشقاء الأكبر، وهذا الرجاء كان لفرط إخلاصه

---

(1) البحر المحيط: 8/ 39

(2) تفسير ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 465

(3) تفسير الألوسي: 12/ 84

للَّه تعالى، وخشيته من غضبه وطرده، فإن الحبيب دائما يخشى من غضب محبوبه، ويعمل على رضاه ويخشى من غضبه، وخليل اللَّه الذي اختاره اللَّه تعالى خيلا، وقال: ﴿*** وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، كان أشد ما يخشاه غضب ربه، وأن يرد عبادته فيشقى بهذا الرد، وقال: ﴿عَسَى﴾ الدالة على الرجاء تواضعا للَّه واستصغارا لعبادته، وكان بهذا المخلص البر الحبيب المحبوب؛ إذ غلَّب الخوف ليصلح أمره وأنه إذ اعتزلهم حرم من أنس أهله، فوهبه البنين والذرية[1].

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة مريم:48] أي: عسى ألاَّ أكون شقيًا بسبب دعائي لربي؛ لأنه تبارك وتعالى لا يُشقي مَنْ عبده ودعاه، فإنْ أردتَ المقابل فَقُلْ: الشقيُّ مَنْ لا يعبد الله ولا يدعوه[2].

﴿عَسَى أن لا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي. وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجع فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله[3].

والشقي: الذي أصابته الشقوة، وهي ضد السعادة، أي هي الحرمان من المأمول وضلال السعي. وأطلق نفي الشقاوة والمراد حصول ضدها وهو السعادة على طريق الكناية إذ لا واسطة بينهما عرفا.

ومثل هذا التركيب جرى في كلامهم مجري المثل في حصول السعادة من شيء. ونظيره قوله تعالى في هذه السورة في قصة إبراهيم ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة مريم:48] أي عسى أن أكون سعيدا، أي مستجاب الدعوة. وفي حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– فيما يرويه عن ربه في شأن الذين يذكرون الله ومن جالسهم: «هم الجلساء لا يشقي بهم جليسهم» أي يسعد معهم.

---

(1) زهرة التفاسير: 9/ 4653

(2) خواطر الشيخ الشعراوي: 1/ 5562

(3) تفسير السعدي: 1/ 494

وزاد على الإعلان باعتزال أصنامهم الإعلان بأنه يدعوا الله احتراسا من أن يحسبوا أنه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم، ولذا بين لهم أنه بعكس ذلك يدعوا الله الذي لا يعبدونه.

وعبر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى فهو ربه وحده من بينهم، فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي، مع ما تتضمنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إياه والتشريف لنفسه بذلك.

وجملة ﴿وعَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿وادعوا﴾، أي راجا أن لا أكون بدعاء ربي شقيا.. وفي إعلانه هذا الرجاء بين ظهرانيهم تعريض بأنهم أشقياء بدعاء آلهتهم[1].

اعلم أنه ما خسر على الله أحد فإن إبراهيم عليه السلام لما اعتزلهم في دينهم وفي بلدهم واختار الهجرة إلى ربه إلى حيث أمره لم يضره ذلك دينًا ودنيا، بل نفعه فعوضه أولادًا أنبياء ولا حالة في الدين والدنيا للبشر أرفع من أن يجعل الله له رسولًا إلى خلقه ويلزم الخلق طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة فصار جعله تعالى إياهم أنبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة، ثم بين تعالى أنه مع ذلك وهب لهم من رحمته أي وهب لهم من النبوة ما وهب ويدخل فيه المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [سورة مريم:50] ولسان الصدق الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يعطي باليد وهو العطية، واستجاب الله دعوته في قوله: ﴿واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الأخرين﴾ [الشعراء: 84] فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم[2].

أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المبين، والذكر الحكيم، فإن ذكر فيه الأخبار، كانت أصدق الأخبار وأحقها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي، كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعد والوعيد، كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل. وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور

---

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور: 16/ 51 بتصرف يسير

(2) تفسير الرازي: 10/ 319

فيه، أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيرا ما يبدئ ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم، بسبب ما قاموا به، من عبادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية. فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم. وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والاقتداء بهم[1].

(1) تفسير السعدي: 1/ 494

بسم الله الرحمن الرحيم

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ

الآيات الأول من سورة الفجر تصف ببلاغة فريدة اعتراك الحق والباطل على مر الأزمان، وسنة الله تعالى التي لا تتبدل في قهر الظالمين وكبت المعاندين، تسلية لهذه الأمة عن كل مصابها على مر الدهور، وتثبيتا لأهل الحق في سائر العصور، وكفى بالقرآن سلوى، فإنه سبحانه وتعالى سامع الشكوى وكاشف البلوى، وهو نعم المولى:

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [سورة الفجر:6] الاستفهام هنا تقريري، والمخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم تثبيتا له ووعدا بالنصر، وتعريضا للمعاندين بالإنذار بمثله، فإن ما فعل بهذه الأمم الثلاث موعظة وإنذار للقوم الذين فعلوا مثل فعلهم من تكذيب رسل الله، قصد منه تقريب وقوع ذلك وتوقع حلوله. لأن التذكير بالنظائر واستحضار الأمثال يقرب إلى الأذهان الأمر الغريب الوقوع.

﴿بِعَادٍ﴾ قبيلة عاد تسمية لهم باسم جدّهم. والمراد هنا عادا الأولى أو عاد إرم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ [سورة النجم:50]، وقيل لمن بعدهم: عاد الأخيرة، قبيلة كانت بمكة مع العماليق.

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [سورة الفجر:7] أرم أسم قبيلة عاد.

وقيل: إرم اسم مدينتهم، ويسمون بعاد إرم.

﴿ذَاتِ العماد﴾ من قال: إرم قبيلة قال: العماد أعمدة بنيانهم أو أعمدة بيوتهم من الشعر، وقال ابن عباس: ذلك كناية عن طول أبدانهم.

ومن قال إرم مدينة فالعماد الحجارة التي بنيت بها، وقيل القصور والأبراج.

﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨﴾ [سورة الفجر:8] صفة للقبيلة لأنهم كانوا أعظم الناس أجسامًا، يقال: كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع. قيل: كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة فيحملها على كاهله فيلقيها على أي حي أراد فيهلكهم.

أو صفة للمدينة، وهذا أظهر لقوله في البلاد، ولأنها كانت أحسن مدائن الدنيا، وروي أن إرم كانت على وجه الدهر باليمن، بناها شداد بن عاد في ثلاثمائة عام، وكان عمره تسعمائة عام، وجعل قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أنواع الشجر والأنهار الجارية، وروي أنه سمع ذكر الجنة فأراد أن يعمل مثلها فلما أتمها وسار إليها بعث الله عليها وعلى أهله صيحة قبل أن يدخلها فهلكوا جميعًا.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾ [سورة الفجر:9]: خرقوه وقطعوه ونحتوه، فاتخذوا في الحجارة منها بيوتًا، كما قال تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء:149] ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر:82]

قيل: أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود، وبنوا ألفًا وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة بالوادي.

﴿بِالْوَادِ﴾ روى أبو الأشهب عن أبي نضرة، قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة تبوك على وادي ثمود، وهو على فرس أشقر، فقال: (أسرعوا السير؛ فإنكم في واد ملعون).

﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠﴾ [سورة الفجر:10] ذو الأوتاد، لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا.

أو لتعذيبه بالأوتاد، وكان إذا غضب على أحد مدّهُ على الأرض وأوتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض، كما فعل بماشطة بنته وبآسية زوجته.

ومن خبر ماشطة بنت فرعون أنها بينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت: "تعس من كفر بالله"، فقالت بنت فرعون: وهل لكِ من إله غير أبي؟ فقالت: إلهي وإله أبيك وإله السماوات والأرض واحدٌ لا شريك له. فقامت

فدخلت على أبيها وهي تبكي قال: ما يبكيك؟ قالت: الماشـــطة امرأة خازنك تزعم أنّ إلهك وإلهها وإله السماوات والأرض واحدٌ لا شريك له. فأرسل إليها فسألها عن ذلك، فقالت: صدقت. فقال لها ويحك: اكفري بإلهك وأقري أني إلهك، قالت: لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب فقال لها: اكفري بالله وإلاّ عذبتك بهذا العذاب شهرين، قالت: والله لو عذّبتني سبعين شهرًا ما كفرت بالله تعالى.

قال: وكان لها ابنتان فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على فيها، وقال لها: اكفري بالله وإلاّ ذبحت ابنتك الصغرى على فيك، وكانت طفلة رضيعة تجد بها وجدًا شديدًا فقالت: لو ذبحت من على الأرض على فيّ ما كفرتُ بالله تعالى.

قال: فأتى بابنتها فلمّا أن قُدّمت منها واضجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جزعت المرأة، فأطلق الله لســـان ابنتها فتكلّمت وهي من الأربعة الذين تكلّموا أطفالًا، فقالت: يا أُمّاه لا تجزعي فإنّ الله سبحانه قد بنى لكِ بيتًا في الجنّة، اصبري فإنّك تمضين إلى رحمة الله سبحانه وكرامته، قال: فذبحت فلم تلبث أن ماتت وأسكنها الله سبحانه وتعالى الجنّة.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾﴾ [سورة الفجر:11] قال ابن الخطيب: يحتمل أن يرجع الضّمير إلى فرعون خاصة؛ لأنه يليه، ويحتمل أن يرجع إلى جميع من تقدم ذكرهم، وهو الأقرب.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ [سورة الفجر:13] الصب قريب من الإمطار، استعمل الصب لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب، وللإيذان بشدته وكثرته ووفرته واستمراره واستحالة رده.

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ خص السوط فاستعير للعذاب، لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره.

وقيل: السوط، هو الآلة المعروفة. سمي سوطًا؛ لأن يساط به اللحم عند الضرب أي: يختلط.

وقال الزمخشري: وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به.

وقال أهل المعاني: هذا على الاستعارة؛ لأنّ السوط عندهم غاية العذاب.

وكان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن الله تعالى عنده أسواط كثيرة، فأخذهم بسوط منها.

وفي آيات سورة فصلت تفصيل لكيفية إهلاك عاد وثمود وبيان لما أجمل في سورة «الفجر» في قوله تعالى ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الفجر:13].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ(16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الفجر:14] والمرصاد: المكان الذي يترتب فيه الرصد، وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه.

أي إن ربك لبالمرصاد للمكذبين لا يخفى عليه أمرهم، فيكون تثبيتا للنبي صلى الله عليه وسلم كقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:42].

والعدول عن ضمير المتكلم أو اسم الجلالة إلى ﴿ربك﴾ في قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الفجر:13] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الفجر:14] إيماء إلى أن فاعل ذلك «ربه» الذي شأنه أن ينتصر له، فهو مؤمل بأن يعذب الذين كذبوه انتصارا له انتصار المولى لوليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ

قال تعالى:

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:18]

قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ الإنذار الإعلام المقترن بتهديد خاصة، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذارًا.

﴿الْآزِفَةِ﴾ القيامة. وإنما عبر عنها بالآزفة لأجل أزوفها أي قربها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من اقتراب قيام الساعة، جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة النجم:هُوَ ﴿٤٨﴾- رَبُّ ﴿٤٨﴾]. . وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾. وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [سورة الأنبياء:1]. وقوله تعالى في الأحزاب: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الأحزاب:63]. وقوله تعالى في الشورى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الشورى:17].

والمعنى: أنذرهم يوم القيامة، بمعنى خوفهم إياه وهددهم بما فيه من الأهوال العظام ليستعدوا لذلك في الدنيا بالإيمان والطاعة.

قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ﴾ [سورة غافر:18] ومعنى كون القلوب لدى الحناجر، في ذلك الوقت، فيه لعلماء التفسير وجهان معروفان:

1/ أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، من أن "قلوبهم يومئذ، ترتفع من أماكنها في الصدور، حتى تلتصق بالحلوق، فتكون لدى الحناجر، فلا هي تخرج من أفواههم فيموتوا، ولا هي ترجع إلى أماكنها في الصدور فيتنفسوا". وهذا القول هو ظاهر القرآن.

2/ الوجه الثاني: هو أن المراد بكون القلوب، لدى الجناجر، بيان شدة الهول، وفظاعة الأمر، وعليه فالآية كقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [سورة الأحزاب:10-11]. وهو زلزال خوف وفزع لا زلزال حركة الأرض.

وقوله: ﴿كَاظِمِينَ﴾ مكروبين ممتلئين خوفًا وحزنًا

والكاظم الساكت حال امتلائه غمًا وغيضًا، والمعنى أنهم لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يبوحوا بما عندهم من الخوف والحزن، فهم قد أطبقوا أفواههم على ما في قلوبهم من شدة الخوف، وذلك يوجب مزيد الشدة والمعاناة.

قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [سورة غافر:18] قريب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨﴾ [سورة غافر:18] ولا شفيع تُقبل شفاعته.

عن الْحَسَنُ بْنُ حَسَّانَ، قَالَ: كُنَّا يَوْمًا عِنْدَ صَالِحٍ الْمُرِّيِّ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ وَيَعِظُ، فَقَالَ لِرَجُلٍ حَدَثٍ بَيْنَ يَدَيْهِ: اقْرَأْ يَا بُنَيَّ فَقَرَأَ الرَّجُلُ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨﴾ [سورة غافر:18].

فَقَطَعَ عَلَيْهِ صَالِحٌ الْقِرَاءَةَ فَقَالَ: وَكَيْفَ يَكُونُ لِلظَّالِمِينَ حَمِيمٌ أَوْ شَفِيعٌ وَالطَّالِبُ لَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ وَاللهِ لَوْ رَأَيْتَ الظَّالِمِينَ وَأَهْلَ الْمَعَاصِي يُسَاقُونَ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ إِلَى الْجَحِيمِ حُفَاةً عُرَاةً مُسْوَدَّةً وُجُوهُهُمْ مُزْرَقَّةً عُيُونُهُمْ ذَائِبَةً أَجْسَامُهُمْ يُنَادُونَ يَا وَيْلَاهُ يَا ثُبُورَاهُ مَاذَا نَزَلَ بِنَا؟ مَاذَا حَلَّ بِنَا؟ أَيْنَ يُذْهَبُ بِنَا؟ مَاذَا يُرَادُ مِنَّا؟

وَالْمَلَائِكَةُ تَسُوقُهُمْ بِمَقَامِعِ النِّيرَانِ، فَمَرَّةً يُجَرُّونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَيُسْحَبُونَ عَلَيْهَا مُتَّكِئِينَ، وَمَرَّةً يُقَادُونَ إِلَيْهَا عُنُقًا مُقَرَّنِينَ، مِنْ بَيْنِ بَاكٍ دَمًا بَعْدَ انْقِطَاعِ الدُّمُوعِ وَمِنْ بَيْنِ صَارِخٍ طَائِرِ الْقَلْبِ مَبْهُوتٍ، إِنَّكَ وَاللهِ لَوْ رَأَيْتَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لَرَأَيْتَ مَنْظَرًا لَا يَقُومُ لَهُ بَصَرُكَ وَلَا يَثْبُتُ لَهُ قَلْبُكَ وَلَا يَسْتَقِرُّ لِفَظَاعَةِ هَوْلِهِ عَلَى قَرَارِ قَدَمُكَ.

ثُمَّ نَحَبَ وَصَاحَ يَا سُوءَ مَنْظَرَاهُ وَيَا سُوءُ مُنْقَلَبَاهُ وَبَكَى وَبَكَى النَّاسُ، فَقَامَ شَابٌّ بِهِ تَأْنِيثٌ فَقَالَ: أَكُلُّ هَذَا فِي الْقِيَامَةِ يَا أَبَا بِشْرٍ قَالَ: نَعَمْ وَاللهِ يَا ابْنَ أَخِي، وَمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُمْ يَصْرُخُونَ فِي النَّارِ حَتَّى تَنْقَطِعَ أَصْوَاتُهُمْ فَلَا يَبْقَى مِنْهَا إِلَّا كَهَيْئَةِ الْأَنِينِ مِنَ الْمُدْنَفِ، فَصَاحَ الْفَتَى إِنَّا لِلَّهِ وَاغْفَلَتَاهُ عَنْ نَفْسِي أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَا أَسَفَى عَلَى تَفْرِيطِي فِي طَاعَتِكَ يَا سَيِّدَاهُ وَاأَسَفَاهُ عَلَى تَضْيِيعِ عُمْرِي فِي دَارِ الدُّنْيَا ثُمَّ بَكَى وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْتَقْبِلُكَ فِي يَوْمِي هَذَا بِتَوْبَةٍ لَكَ لَا يُخَالِطُهَا رِيَاءٌ لِغَيْرِكَ، اللهُمَّ فَاقْبَلْنِي عَلَى مَا كَانَ مِنِّي وَاعْفُ عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ عَمَلِي، وَأَقِلْنِي عَثْرَتِي، وَارْحَمْنِي وَمَنْ حَضَرَنِي، وَتَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِجُودِكَ أَجْمَعِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، لَكَ أَلْقَيْتُ مَعَاقِدَ الْآثَامِ مِنْ عُنُقِي، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ بِجَمِيعِ جَوَارِحِي صَادِقًا بِذَلِكَ قَلْبِي، فَالْوَيْلُ لِي إِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْبَلْنِي، ثُمَّ غُلِبَ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ فَحُمِلَ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ صَرِيعًا يَبْكُونَ عَلَيْهِ وَيَدْعُونَ لَهُ.

وَكَانَ صَالِحٌ كَثِيرًا مَا يَذْكُرُهُ فِي مَجْلِسِهِ يَدْعُو اللهَ لَهُ وَيَقُولُ: بِأَبِي قَتِيلُ الْقُرْآنِ بِأَبِي قَتِيلُ الْمَوَاعِظِ وَالْأَحْزَانِ فَرَآهُ رَجُلٌ فِي مَنَامِهِ فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ، قَالَ: عَمَّتْنِي بَرَكَةُ مَجْلِسِ صَالِحٍ فَدَخَلْتُ فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

قَالَ: وَكُنَّا فِي مَجْلِسِ صَالِحٍ الْمُرِّيِّ فَأَخَذَ فِي الدُّعَاءِ فَمَرَّ رَجُلٌ مُخَنَّثٌ فَوَقَفَ يَسْمَعُ الدُّعَاءَ وَوَافَقَ صَالِحًا يَقُولُ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِأَقْسَانَا قَلْبًا، وَأَجْمَدِنَا عَيْنًا، وَأَحْدَثِنَا بِالذُّنُوبِ عَهْدًا»، فَسَمِعَ الْمُخَنَّثُ فَمَاتَ فَرُئِيَ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ. قَالَ: غَفَرَ اللهُ لِي، قِيلَ بِمَاذَا؟ قَالَ: بِدُعَاءِ صَالِحٍ الْمُرِّيِّ، لَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ أَحْدَثَ عَهْدًا بِالْمَعْصِيَةِ مِنِّي فَوَافَقَتْ دَعْوَتُهُ الْإِجَابَةَ فَغُفِرَ لِي.

أخي الحبيب

الزم ثغرك، واعلم أنكَ لن تجدَ واقعًا أشدَّ فسادًا من الواقع الذي نُبِّئ فيه الأنبياءُ وأُرسِلَ فيه الرُّسُل؛ ولولا شِدَّةُ فساده ما أُرسِلُوا، ولستَ أكرمَ على الله من رُسُلِه ليُصلِحَ لك-دون سَعيٍ منك- واقعًا لم يُصلِحْهُ لهم، وقد أكرمكَ اللهُ بإيجادك في واقعٍ شبيهٍ بواقعهم لتصلحهُ كما أصلحوه؛ فإن لم تكن منهم فَسِرْ على آثارهم تكن معهم،

ولا تنتظر في حياتك ثمرةَ سيرك؛ فموسى مات في التيه، وعيسى رُفع في الفتنة، ومحمدٌ- عليه وعلى أنبياء الله ورسله الصلاة والسلام- ارتدَّ أعرابُ جزيرته بعد موته،

ولو وضعَ أبو بكر رضي الله عنه يَده على خَدِّهِ ويئس- حين انتقض عليه أعرابُ الجزيرة- ما وصلكَ مما وصلكَ من الدين شيء..

حسبك أن تؤذِّنَ كما أذَّنَ إبراهيم، ومَا عَسى يبلغُ صوتُ إبراهيم!!

إنما عليكَ الأذانُ وعلى الله البلاغ، ولكلِ ثغرٍ أذانُه، وكُلُّ الثغورِ شاغرة؛ فإن وجدتَ ثغركَ فالزمه- وذلكَ عبادتُك- وإن لم تجده فابحث عنه- وذلك أيضًا عبادتُك

حَسْبُكَ ألا يراكَ اللهُ إلا على ثَغرٍ، أو باحثًا عن ثغر!!

بسم الله الرحمن الرحيم

وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان:20]

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [سورة الفرقان:20]: "ومعنى هذا: أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغنى ممتحن بالفقير عليه أن يواسيه، ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغنى عليه أن لا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق، كما قال الضحاك في معنى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: على الحق، وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لَمْ نعاف، والأعمى يقول لم لم أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره وكذلك العلماء، وحكام العدل ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الزخرف:31]، فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه هذا عن البطر، وذلك عن الضجر"[1].

وإذا علمت معنى كون بعضهم فتنة لبعض. فاعلم أن قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [سورة الأنعام:53] الآية. فيه فتنة أغنياء الكفار بفقراء المسلمين، حيث احتقروهم وازدروهم، وأنكروا أن يكون الله من عليهم دونهم لأنهم في زعمهم لفقرهم، ورثاثة حالهم، لا يمكن أن يرحمهم الله ويعطيهم من فضله الواسع كما قال تعالى عنهم إنهم قالوا فيهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [سورة الأحقاف:11] وقال ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [سورة ص:8] إلى غير ذلك من الآيات، وسيوبخهم الله يوم القيامة على احتقارهم لهم في الدنيا

---

(1) تفسير القرطبي: 13/ 18

كما قال تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الأعراف:49]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة المطففين:29-34]، إلى قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة المطففين:34-36]. ،

وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [سورة البقرة:212] وقوله تعالى: ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾، أي: على الحق أم لا تصبرون. والعلم عند الله تعالى[1].

﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ [سورة الفرقان:20] أي هذه سنتنا في خلقنا نبتلي بعضهم ببعض فنبتلي المؤمن بالكافر والغني بالفقير والصحيح بالمريض والشريف بالوضيع، وننظر من يصبر ومن يجزع ونجزي الصابرين بما يستحقون والجزعين كذلك.

وقوله تعالى: ﴿أتصبرون﴾ هذا الاستفهام معناه الأمر أي اصبروا إذًا ولا تجزعوا أيها المؤمنون من أذى المشركين والكافرين لكم. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الفرقان:20] أي وكان ربك أيها الرسول بصيرًا بمن يصبر وبمن يجزع فاصبر ولا تجزع فإنما دار الفتنة والامتحان وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب[2].

وقال الزمخشري: ﴿فتنة﴾ أي محنة وبلاء، وهذا تصبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه واستبعدوه من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعدما احتج عليهم بسائر الرسل يقول: جرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض.

والمعنى أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف وأنواع أذاهم، وطلب منهم الصبر الجميل ونحوه ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ

---

(1)أضواء البيان: 6/ 36

(2) أيسر التفاسير للجزائري: 3/ 81

﴿أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [سورة آل عمران:186] الآية وموقع ﴿أتصبرون﴾ بعد ذكر الفتنة موقع ﴿أيكم﴾ بعد الابتلاء في قوله ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملًا﴾ ﴿بصيرًا﴾ عالمًا بالصواب فيما يبتلى به وبغيره فلا يضيقن صدرك ولا تستخفنك أقاويلهم فإن في صبرك عليهم سعادة، وفوزك في الدارين.

وقيل: هو تسلية عما عيروه به من الفقر حين قالوا ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ [سورة الفرقان:8] وأنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء لينظر هل تصبرون وأنها حكمته ومشيئته يغني من يشاء ويفقر من يشاء.

وقيل: جعلنا فتنة لهم لأنك لو كنت غنيًا صاحب كنوز وجنات لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا أو ممزوجة بالدنيا، وإنما بعثناك فقيرًا لتكون طاعة من يطيعك منهم خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي.

وقيل: كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقتهم يقولون إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان فرفعوا علينا إدلالًا بالسابقة فهو افتتان بعضهم ببعض انتهى.

وفيه تكثير وهذا القول الأخير قول الكلبي والفراء والزجاج.

والأولى أن قوله ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [سورة الفرقان:20] يشمل معاني هذه الألفاظ كلها لأن بين الجميع قدرًا مشتركًا[1].

قال النسفي: أتصبرون على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمّكم؟ حكي أن بعض الصالحين تبرّم بضنك عيشه، فخرج ضجِرًا، فرأى خصيًا في مواكب ومراكب، فخطر بباله شيء، فإذا بقارئ يقرأ هذه الآية، فقال: بل نصبر، ربّنا.

قال القشيري: هو استفهام بمعنى الأمر، فمن قارنه التوفيقُ صبر وشكر، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر. وقيل: هو الأمر بالإعراض عما جعل في نظره فتنة، كما قال: ﴿وَلَا

(1) البحر المحيط لأبي حيان: 8/ 365

﴿تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه:131]، فينبغي ألا ينظر بعض إلى بعض، إلا لمن دونه، كما ورد في الخبر[1].

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [سورة الفرقان:20] فأيّ بعض فتنة لأيِّ بعض؟ كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: 32] أيُّ بعض مرفوع، وأيّ بعض مرفوع عليه؟

نلاحظ في مثل هذه المسائل أن الناس لا تنظر إلا إلى زاوية واحدة: أن هذا غنيٌّ وهذا فقير، لكنهم لو أخذوا في المفاضلة بكل جوانب النفس الإنسانية لوجدوا أن في كل إنسان موهبةً خَصّه الله بها، فكلٌّ منّا عنده مَيْزةٌ ليست عند أخيه؛ ذلك ليتكاتف الناس ويتكامل الخَلْق؛ لأن العالم لو كان نسخة واحدة مكررة ما احتاجَ أحدٌ لأحد، وما سأل أحد عن أحد، أمّا حين تتعدد المواهب فيكون عندك ما ليس عندي، فيترابط المجتمع ترابط الحاجة لا ترابط التفضل.

ولو تصورنا الناس جميعًا تخرجوا في الجامعة وأصبحوا (دكاترة) فمَنْ يكنس الشارع؟ ساعتها سيتطوع أحدنا يومًا لهذه المهمة، إذن: تصبح الحاجة بنت تطوُّع وتفضُّل، والتفضُّل لا يُلزِم أحدًا بعمل، فقد تتعطل المصالح. أمّا حين تدعوك الحاجة فأنت الذي تُسرع إلى العمل وتبحث عنه.

أَلاَ ترى أصحاب المهن الشاقة يخرجون في الصباح يبحثون عن عمل، ويغضب الواحد منهم إذا لم يجد فرصة عمل في يومه مع ما سيتحمله من آلام ومشاق، لماذا؟ إنها الحاجة.

فالعامل الذي يعمل في المجاري مثلًا ويتحمَّل أذاها هو في قدرته على نفسه ورضاه بقدَر الله فيه أفضل مِنّي أنا في هذه المسألة، لأنني لا أقدر على هذا العمل وهو يقدر، ولو ترك الله مثل هذه الأعمال للتفضّل ما أقدم عليها أحد، إذن: التسخيرات من الحق سبحانه وتعالى لحكمه.

---

(1) البحر المديد: 4/ 284

ومثل هذه الأعمال الشاقة أو التي تؤذي العامل يعدُّها البعض أعمالًا حقيرة، وهذا خطأ، فأيُّ عمل يُصلح المجتمع لا يُعَدُّ حقيرًا، فلا يوجد عمل حقير أبدًا، وإنما يوجد عامل حقير.

فمعنى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان:20] كل بعض منا فتنة للآخر، فالغنيُّ فتنةٌ للفقير، والفقير فتنة للغني.. الخ فحين يتعالى الغني على الفقير ويستذلّه فالفقير هنا فتنة للغني، وحين يحقد الفقير على الغني ويحسده، فالغنيّ هنا فتنة للفقر، وهكذا الصحيح فتنة للمريض، والرسل فتنة لمن كذّبوهم، والكفار فتنة للرسل.

والناس يفرون من الفتنة في ذاتها، وهذا لا يصح؛ لأن الفتنة تعني الاختبار، فالذي ينبغي أن نفر منه نتيجة الفتنة، لا الفتنة ذاتها، فالامتحان فتنة للطلاب، مَنْ ينجح فالفتنة له خَيْر ومَنْ يخفق فالفتنة في حَقِّه شَرٌّ. إذن: الفتنة في ذاتها غير مذمومة.

لذلك تُؤخَذ الفتنة من فتنة الذهب حين يُصْهر، ومعلوم أن الذهَب أفضل المعادن، وإنْ وُجد ما هو أنفس منه، لماذا؟ لأن من مَيْزاته أنه لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره، وهو كذلك سهل السَّبْك؛ لذلك يقولون: المعدن النفيس كالأخيار بَطيءٌ كَسْره، سريع جَبْره. فمثلًا حين يتكسر الذهب يسهل إعادته وتصنيعه على خلاف الزجاج مثلًا.

إذن: الفتنة اختبار، الماهر مَنْ يفوز فيه، فإنْ كان غنيًا كان شاكرًا مُؤدِّيًا لحقِّ الغني مُتواضعًا يبحث عن الفقراء ويعطف عليهم، والفقير هو العاجز عن الكسب، لا الفقير الذي احترف البلطجة وأَكْل أموال الناس بالباطل.

ولما كانت الفتنة تقتضي صَبْرًا من المفتون، قال سبحانه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:20] فكل فتنة تحتاج إلى صبر، فهل تصبرون عليها؟

ولأهمية الصبر يقول تعالى في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:12] يعني: مُطلَق الإنسان في خُسْر لا ينجيه منه إلاّ أنْ يتصف بهذه الصفات: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:3].

وتُختم الآية بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان:20] لينبهنا الحق سبحانه أن كل حركة من حركاتكم في الفتنة مُبْصَرة لنا، وبصرنا للأعمال ليس لمجرد العلم، إنما لنُرتِّب على الأعمال جزاءً على وَفْقها[1].

(1) خواطر الشعراوي: 1/ 6410

بسم الله الرحمن الرحيم

وَرْدَةً كَالدِّهَانِ

قال تعالى:

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الرحمن:37]

أما تشقق السماء يوم القيامة فقد بينه جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الرحمن:37] وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [سورة الانشقاق:1] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾، فقوله: ﴿فُرِجَتْ﴾: أي: شقت، فكان فيها فروج أي: شقوق كقوله، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [سورة الانفطار:1]، وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة النبأ:19][1].

قال مجاهد والضحاك، وغيرهما: «الدهان»: الدهن، والمعنى: صارت في صفاء الدّهن، والدهان على هذا جمع دهن.

وقال سعيد بن جبير وقتادة: المعنى تصير في حُمْرة الورد، وجريان الدهن، أي: تذوب مع جريان الدهن حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لرقّتها وذوبانها.

وقيل: الدهان: الجلد الأحمر الصرف. ذكره أبو عبيدة والفراء. أي: تصير السماء كالأديم لشدّة حر نار جهنم.

وعن ابن عباس: المعنى: فكانت كالفرس الورد في الربيع كميت أصفر، وفي الشتاء كميت أحمر، فإذا اشتد الشتاء كان كميتًا أغْبر.

---

(1) أضواء البيان للشنقيطي: 6/ 44

وقال الفراء: أراد الفرس الوردة، تكون في الربيع وردة إلى الصُّفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة؛ فإذا كان بعد ذلك كانت وردةً إلى الغبرة، فشبه تلوّن السماء بتلوّن الورد من الخيل.

وقال الحسن: « كالدِّهان » أي: كصبّ الدهن، فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانًا.

وقال زيد بن أسلم: المعنى: أنها تصير كعكر الزيت.

وقيل: المعنى أنها تمر وتجيء.

قال الزجاج: أصل الواو والراء والدال للمجيء والإتيان[1].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة، وأنها إذا انشقت صارت وردة كالدهان، وقوله: ﴿وَرْدَةً﴾، أي حمراء كلون الورد، وقوله ﴿كَالدِّهَانِ﴾، فيه قولان معروفان للعلماء.

الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه.

والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به، وعليه، فالدهان، قيل: هو جمع دهن، وقيل: هو مفرد، لأن العرب تسمى ما يدهن به دهانا، وهو مفرد، ومنه قول امرىء القيس:

كأنهما مزادتا متعجل... فريان لما تدهني بدهان

وحقيقة الفرق بين القولين أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة فشبهها بحمرة الورد، وحمرة الأديم الأحمر.

قال بعض أهل العلم: إنها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة. وقال بعض أهل العلم: أصل السماء حمراء إلا أنها لشدة بعدها وما دونها من الحواجز لم تصل العيون إلى إدراك لونها الأحمر على حقيقته، وأنها يوم القيامة ترى على حقيقة لونها.

وأما على القول بأن الدهان هو ما يدهن به، فإن الله وقد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها، والثاني أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن.

---

(1) اللباب في علوم الكتاب: 15/ 51

أما على القول الأول، فلم نعلم آية من كتاب الله تبين هذه الآية، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر.

وأما على القول الثاني الذي هو أنها تذوب وتصير مائعة، فقد أوضحه الله في غير هذا الموضع وذلك في قوله تعالى في المعارج: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا، يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج:8]، والمهل شيء ذائب على كلا القولين سواء قلنا: إنه دِرْديّ الزيت وهو عكره، أو قلنا إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما.

وقد أوضح تعالى في الكهف أن المهل شيء ذائب يشبه الماء شديد الحرارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف:29].

والقول بأن الوردة تشبيه الفرس الكميت وهو الأحمر لأن حمرته تتلون باختلاف الفصول، فتشتد حمرتها في فصل، وتميل إلى الصفرة في فصل، وإلى الغبرة في فصل. وأن المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية، وقول من قال: إنها تذهب وتجيء معناه له شاهد في كتاب الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطور:9]، ولكنه لا يخلو عندي من بعد[1].

يقول الدكتور زغلول النجار وهو أستاذ علوم الأرض في تفسير هذه الآية: هذا موقف من مواقف الآخرة وهول من أهوالها تنشق فيه السماء وتتصدع فتتحول إلى ما يشبه الورد الأحمر أو الأديم الأحمر من شدة الحرارة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، أو تنصهر كالدردى أي ما يركد في أسفل كل مائع كالشراب والأدهان فتكون كالمهل أو كالدهان الذائب الأحمر اللون في صفاء الدهن.

ولكن كيف يتم ذلك هو في علم الله سبحانه وتعالى لأن الآخرة لها من القوانين والسنن ما يغاير قوانين وسنن الدنيا، ولكن من رحمة الله تعالى بنا أنه أبقي لنا من الشواهد الحسية والظواهر المرئية في صفحة الكون ما يؤكد على إمكانية حدوث كل ما أخبر عنه في كتابة الخاتم عن مظاهر الآخرة، ومنها تصدع السماء وانشقاقها حتى تصير وردة كالدهان، ومن

---

(1) أضواء البيان للشنقيطي: 7/ 502-503

أمثلة ذلك ما أرسله إلينا تليسكوب «هابل» الفضائي من صور لعدد من النجوم عند انفجارها ففي 31 أكتوبر سنة 1999 قامت مؤسسة الفضاء الأمريكية ناسا بنشر عدد من الصور الذي بثها هذا التليسكوب الفضائي لنجوم في مرحلة الانفجار في سديم يعرف باسم سديم (عين القط) وهذه النجوم على مسافة منا تقدر بحوالي ثلاثة آلاف من السنين الضوئية وكل نجم من تلك النجوم المنفجرة يبدو في الصورة على هيئة وردة حمراء عملاقة لها من صفاء اللون ما جعل العلماء يصفونها بالتعبير الذي ترجمته وردة حمراء مدهنة وكأنة التعبير القرآني بدقته اللفظية والدلالية.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ

قال تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة القلم:25]

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة القلم:25] في الحرد أربعة أقوال:

الأول: المنع. الثاني: الغضب. الثالث: القصد. الرابع: اسم الجنة

والحرد: يطلق على المنع وعلى القصد القوي، أي السرعة وعلى الغضب، قال عز وجل: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة القلم:25] أي على امتناع من أن يتناولوه، ونزل فلان حريدا أي متمنعا عن مخالطة القوم. وحاردت السنة منعت قطرها والناقة منعت درها، وحرد غضب.

﴿قَادِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون من القدرة، أي قادرين في زعمهم أو قادرينَ على إصابةِ خيرِهَا ومنافعِهَا أو التضييق أي ضيقوا على المساكين.

والمعنى: وساروا في أول النهار إلى حديقتهم على قصدهم السيِّئ في منع المساكين من ثمار الحديقة، وهم في غاية القدرة على تنفيذه في زعمهم.

وقيل ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة القلم:25] أي على نكدٍ، والمَعْنَى أنَّهم أرادُوا أنْ يتنكدُوا على المساكينِ ويحرمُوهُم، وهم قادرونَ على نفعِهم فغَدوا بحالٍ لا يقدرونَ فيها إلا على النكدِ والحرمان، وذلكَ أنَّهُم طلبُوا حرمانَ المساكينِ فتعجلُوا الحرمانَ والمسكنَةَ

وقيل الحَرْدُ القصدُ والسرعةُ أي غَدَوا قاصدينَ إلى جنتِهم بسرعةٍ قادرينَ عند أنفسِهم على صِرامِهَا وقيلَ هو علمٌ للجنةِ

والتعبير بقادرين على الحرد دون أن يقول: وغدوا حادرين تهكم لأن شأن فعل القدرة أن يذكر في الأفعال التي يشق على الناس إتيانها، قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة:264] وقال: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾﴾ [القيامة:4] فقوله:

﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥﴾ [سورة القلم:25] على هذا الاحتمال من باب قولهم: فلان لا يملك إلا الحرمان أو لا يقدر إلا على الخيبة.

وإذا حمل الحرد على معنى السرعة والقصد كان ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ متعلقا ب ﴿غَدَوۡاْ﴾ مبينا لنوع الغدو، أي غدوا غدو سرعة واعتناء، والمعنى: غدوا بسرعة ونشاط، مقدرين أنهم قادرون على تحقيق ما أرادوا.

وفي الكلام تعريض بأنهم خابوا دل عليه قوله بعده ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦﴾ [القلم:26]، وقوله قبله ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩﴾ [سورة القلم:19].

وإذا أريد بالحرد الغضب والحنق فإنه يقال: أي غدوا لا قدرة لهم إلا على الحنق والغضب على المساكين لأنهم يقتحمون عليهم جنتهم كل يوم فتحيلوا عليهم بالتبكير إلى جذاذها، أي لم يقدروا إلا على الغضب والحنق و لم يقدروا على ما أرادوه من اجتناء ثمر الجنة.

وعن السدي: أن ﴿حَرۡدٖ﴾ اسم قريتهم، أي جنتهم. وأحسب أنه تفسير ملفق [التحرير والتنوير: 80/29]

اتفق أئمة الأدب على أن وقوع اللفظ المتنافر في أثناء الكلام الفصيح لا يزيل عنه وصف الفصاحة، فإن العرب لم يعيبوا معلقة امرئ القيس ولا معلقة طرفة. قال أبو العباس المبرد: وقد يضطر الشاعر المفلق والخطيب المصقع والكاتب البليغ فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره فإذا انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره وسترتا من شينه.

وأما ما يعرض للهجات العرب فذلك شيء تفاوتت في مضماره جياد ألسنتهم، وكان المجلي فيها لسان قريش ومن حولها من القبائل، وهو مما فسر به حديث: (أنزل القرآن على سبعة أحرف)، ولذلك جاء القرآن بأحسن اللهجات وأخفها وتجنب المكروه من اللهجات، وهذا من أسباب تيسير تلقي الأسماع له ورسوخه فيها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:17]

ومما أعده في هذه الناحية صراحة كلماته باستعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة، وأشملها لمعان عديدة مقصودة بحيث لا يوجد في كلمات القرآن كلمة

تقصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها، ولا تجدها مستعملة إلا في حقائقها مثل إيثار كلمة «حرد» في قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم:25] إذ كان جميع معاني الحرد صالحا للإرادة في ذلك الغرض، أو مجازات أو استعارات أو نحوها مما تنصب عليه القرائن في الكلام.

وإذا كان القدر لا ينافي الأسباب الكونية والشرعية فهو لا ينافي أن يكون للعبد إرادة وقدرة يكون بهما فعله، فهو مريد قادر فاعل لقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152]. وقوله: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم: 25]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: 66]. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: 46].

لكنه غير مستقل بإرادته وقدرته وفعله، كما لا تستقل الأسباب بالتأثير في مسبباتها لقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 28 - 29]. ولأن إرادته وقدرته وفعله من صفاته وهو مخلوق، فتكون هذه الصفات مخلوقة أيضًا، لأن الصفات تابعة للموصوف، فخالق الأعيان خالق لأوصافها.

المصادر:

- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي
- المفردات في غريب القرآن
- التفسير الميسر
- تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
- التحرير والتنوير
- تقريب التدمرية لابن عثيمين

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ

قال تعالى:

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ} [الملك:25-27]

﴿فلما رَأَوه﴾ أي: العذاب الموعود. والفاء فصيحة مُعربة عن تقدير جملة، كأنه قيل: قد أتاهم الموعود فلما رأوه... الخ، نزّل ما سيقع بمنزلة الواقع لتحقق وقوعه، و ﴿زُلفةً﴾: حال من مفعول «رَأَوه» أي: قريبًا منهم، وهو مصدر، أي: ذا زلفة، ﴿سِيئَتْ﴾ أي: تغيرت ﴿وجوهُ الذين كفروا﴾ بأن غشيها الكآبة ورهقها القَترُ والذلة. ووضع الموصول موضع ضميرهم؛ لذمهم بالكفر، وتعليل المساءة به. ﴿وقيل﴾ توبيخًا لهم، وتشديدًا لعذابهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الملك:27]؛ تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكارًا واستهزاءً، وهو «تفتعلون» من الدعاء، وقيل: من الدعوى، أي: تدعون ألاَّ بعث ولا حشر[1].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الملك:27] أي: هذا الذي كنتم به تكذِّبون، إذ كنتم بسببه أو في موضوعه تدعون الأباطيل والأكاذيب[2].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الملك:27] أي تطلبُونَهُ في الدُّنيا وتستعجلونَهُ إنكارًا واستهزاءً على أنَّه تفتعلونَ من الدعاءِ، وقيلَ هو من الدَّعْوَى أي تدَّعُونَ أنْ لا بعثَ ولا حشرَ[3].

---

(1) تفسير ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 378

(2) صراع مع الملاحدة حتى العظم: 1/ 447

(3) تفسير أبي السعود: 6/ 357

في قوله: ﴿تَدَّعُونَ﴾ وجوه: أحدها: قال الفراء: يريد تدعون من الدعاء أي تطلبون وتستعجلون به، وتدعون وتدعون واحد في اللغة مثل تذكرون وتذكرون وتدخرون وتدخرون وثانيها: أنه من الدعوى معناه: هذا الذي كنتم تبطلونه أي تدعون أنه باطل لا يأتيكم أو هذا الذي كنتم بسببه وتدعون أنكم لا تبعثون وثالثها: أن يكون هذا استفهاماً على سبيل الإنكار، والمعنى أهذا الذي تدعون، لا بل كنتم تدعون عدمه[1].

وفي قوله ﴿كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الملك:27] أربعة أوجه:

أحدها: تمترون فيه وتختلفون، قاله مقاتل.

الثاني: تشكّون في الدنيا وتزعمون أنه لا يكون، قاله الكلبي.

الثالث: تستعجلون من العذاب، قاله زيد بن أسلم.

الرابع: أنه دعاؤهم بذلك على أنفسهم، وهو افتعال من الدعاء، قاله ابن قتيبة[2].

وقراءة العامّة: ﴿تدّعون﴾ بتشديد الدال يفتعلون من الدعاء عن أكثر العلماء أي يتمنّون ويتسلّون، وقال الحسن: معناه يدّعون أن لا جنّة ولا نار، وقرأ الضحاك وقتادة ويعقوب بتخفيف الدال، أي تدعون الله أن يأتكم به وهو قوله: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [سورة الأنفال:32][3].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الملك:27]. "لما" حرف توقيت، أي سيئت وجوههم في وقت رؤيتهم الوعد.

والفاء فصيحة لأنها اقتضت جملة محذوفة تقديرها: فحل بهم الوعد فلما رأوه الخ، أي رأوا الموعد به. وفعل ﴿رَأَوْهُ﴾ مستعمل في المستقبل، وجيء به بصيغة الماضي لشبهه بالماضي في تحقق الوقوع مثل ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1] لأنه صادر عمن لا إخلاف في أخباره فإن هذا الوعد لم يكن قد حصل حين نزول الآية بمكة سواء أريد بالوعد الوعد بالبعث كما هو مقتضى السياق أم أريد به وعد النصر، بقرينة قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

---

(1) تفسير الفخر الرازي: 1/ 4507

(2) النكت والعيون، للماوردي: 4/ 303

(3) الكشف والبيان، النيسابوري: 9/ 361

كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك:25] فإنه يقتضي أنهم يقولونه في الحال وأن الوعد غير حاصل حين قولهم لأنهم يسألون عنه ب ﴿مَتَى﴾.

ونظير هذا الاستعمال قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء:41]. وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ [النحل: 89]، إذ جمع في الآيتين بين فعل ﴿نَبْعَثُ﴾ مضارعا وفعل ﴿وَجِئْنَا﴾ ماضيا.

وأصل المعنى: فإذا يرونه تساء وجوه الذين كفروا الخ، فعدل عن ذلك إلى صوغ الوعيد في صورة الإخبار عن أمر وقع فجيء بالأفعال الماضية.

وضمير ﴿رَأَوْهُ﴾ عائد إلى ﴿الْوَعْدُ﴾ [الملك: 25] بمعنى: رأوا الموعود به.

والزلفة بضم الزاي: اسم مصدر زلف إذا قرب وهو من باب تعب. وهذا إخبار بالمصدر للمبالغة، أي رأوه شديد القرب منهم، أي أخذ ينالهم.

و ﴿سِيئَتْ﴾ بني للنائب، أي ساء وجوههم ذلك الوعد بمعنى الموعد. وأسند حصول السوء إلى الوجوه لتضمينه معنى كلحت، أي سوء شديد تظهر آثار الانفعال منه على الوجوه، كما أسند الخوف إلى الأعين في قول الأعشى:

وأقدم إذا ما أعين الناس تفرق

﴿وَقِيلَ﴾ أي لهم. و ﴿تَدَّعُونَ﴾ بتشديد الدال مضارع ادعى. وقد حذف مفعوله لظهوره من قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك:25]، أي تدعون أنه لا يكون[1].

(1) التحرير والتنوير: 29/ 48

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ

قال تعالى:

{إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الحاقة:33-34]

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الماعون: 1-3] ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾ [الفجر:18]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣﴾ [سورة الحاقة:33] تعليل لاستحقاق العذاب، ووصفه تعالى بالعظيم؛ للإيذان بأنه المستحق للعظمة وحده، فمَن نَسَبَها لنفسه استحقّ أعظم العقوبات ﴿ولا يَحُضُّ على طعام المسكين﴾ أي: لا يحث على بذل طعام غيره، فضلًا عن أن يبذل ماله، وقيل: ذكر الحض للتنبيه على أنَّ تارك الحضّ إذا كان بهذه المنزلة، فما ظنك بتاركه؟ وفيه دلالة على أنَّ الكفار مخاطبون بالفروع، وأنَّ أقبح العقائد الكفر، وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب، وفيه أيضًا إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث، لأنَّ إطعام المساكين إنما يرجى جزاؤه يوم القيامة، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم، وفيه دليل على عِظم جُرم حرمان المساكين؛ لأنّه عطفه على الكفر، وجعله دليلًا عليه وقرينَه.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يحضّ امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين، ويقول: خلَعْنا نصفَ السلسلة بالإيمان، فلنخلع نصفها بهذا، أي: الصدقة[1].

اقتبس ذلك من الآية فإنه جعل استحقاق السلسلة معللًا بعدم الإيمان وعدم الحض، وتخصيص الأمرين بالذكر قيل لما أن أقبح العقائد الكفر وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب.

وعطف ﴿ولا يحض﴾ على ﴿لا يؤمن﴾ داخل في العلة، وذلك يدل على عظم ذنب من لا يحض على إطعام المسكين، إذ جعل قرين الكفر، وهذا حكم ترك الحض، فكيف يكون ترك الإطعام؟ والتقدير على إطعام طعام المسكين.

---

(1) البحر المديد: 402/6

وأضاف الطعام إلى المسكين من حيث لم ينسبه إليه، إذ يستحق المسكين حقًا في مال الغني الموسر ولو بأدنى يسار؛ وللعرب في مكارمهم وإيثارهم آثار عجيبة غريبة بحيث لا توجد في غيرهم، وما أحسن ما قيل فيهم:

على مكثريهم رزق من يعتريهم.. وعند المقلين السماحة والبذل [1] وفيه دليل على تعظيم الجرم في حرمان المساكين لأن الله تعالى عطفه على الكفر وجعله قرينه. قال الحسن في هذه الآية: أدركت أقوامًا يعزمون على أهليهم أن لا يردوا سائلًا. وعن بعضهم أنه كان يأمر أهله بكثير المرقة لأجل المساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الثاني بالإطعام[2].

وجملة ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ في موضع العلة للأمر بأخذه وإصلائه الجحيم.

ووصف الله بالعظيم هنا إيماء إلى مناسبة عظم العذاب للذنب إذ كان الذنب كفرانا بعظيم فكان جزاء وفاقا.

والحض على الشيء: أن يطلب من أحد فعل شيء ويلح في ذلك الطلب.

ونفي حضه على طعام المسكين يقتضي بطريق الفحوى أنه لا يطعم المسكين من ماله لأنه إذا كان لا يأمر غيره بإطعام المسكين فهو لا يطعمه من ماله، فالمعنى لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه، وقد كان أهل الجاهلية يطعمون في الولائم، والميسر، والأضياف، والتحابب، رياء وسمعة. ولا يطعمون الفقير إلا قليل منهم. وقد جعل عدم الحض على طعام المسكين مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين بمال غيره وكناية عن الشح عنهم بماله، كما جعل الحرص على إطعام الضيف كناية عن الكرم[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ فيه عطف عدم الحض على طعام المسكين على عدم الإيمان بالله العظيم مما يشير إلى أن الكافر يعذب على الفروع[4].

---

(1) البحر المحيط: 343/10

(2) تفسير الخازن: 155/6

(3) التحرير والتنوير: 128/29

(4) أضواء البيان: 261/8

«الحضُّ»: الحثُّ على الفعل والحرص على وقوعه، ومنه حروفُ التحضيض المبوب لها في النحو؛ لأنَّه يطلب بها وقوع الفعل وإيجاده، فبيَّن تعالى أنه عذَّب على تركِ الإطعامِ، وعلى الأمر بالبخلِ كما عذَّب بسبب الكُفْرِ[1].

وأضاف «الطعام» إلى ﴿المسكين﴾ من حيث له إليه نسبة ما، وخصت هذه الخلة من خلال الكافر بالذكر لأنها من أضر الخلال في البشر إذا كثرت في قوم هلك مساكنهم[2].

﴿ولا يَحُضُّ على طعامِ المِسْكِينِ﴾ أي لا يفعله ولا يأمر به، وليس الذم عامًا حتى يتناول من تركه عجزًا، ولكنهم كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم يقولون ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [سورة يس:47] فنزلت هذه الآية فيهم، ويكون معنى الكلام لا يفعلونه إن قدروا، ولا يحثون عليه إن عجزوا[3].

هل الكافر الذي يحض على طعام المسكين، يكون عذابه أقل من الكافر الذي لا يحض على طعام المسكين؟

الجواب: القواعد تشير إلى الإفادة بنعم، فإن الكفار دركات: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:88]، فللكفر عذاب، وللصد عن سبيل الله عذاب فوق العذاب، وأيضًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت:12-13][4].

﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما﴾ أي ألا فارتدعوا أيها الماديون الذين تقيسون الأمور كلها بمقاييس المادة فالله جل جلاله يوسع الرزق اختبارا للعبد هل يشكر نعم الله عليه فيذكرها ويشكرها

---

(1) اللباب في علوم الكتاب: 446/15

(2) المحرر الوجيز: 412/6

(3) النكت والعيون: 461/4

(4) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي

بالإِيمان والطاعة ويضيّق الرزق امتحانا هل يصبر العبد لقضاء ربه أو يجزع. وإنما أنتم أيها الماديون ترون أن في التوسعة اكراما وفي التضييق إهانة كلا ليس الأمر كذلك، ونظريتكم المادية هذه أتتكم من حبّكم الدنيا واغتراركم بها ويشهد بذلك إهانتكم لليتامى وعدم إكرامكم لهم لضعفهم وعجزهم أمامكم، وعدم الاستفادة المادية منهم. وشاهد آخر أنكم لا تحضون أنفسكم ولا غيركم على إطعام المساكين وهم جياع أمامكم، وآخر أنكم تأكلون التراث أي الميراث أكلا لما شديدا تجمعون مال الورثة من الأطفال والنساء إلى أموالكم. وتحرمون الضعيفين الأطفال والنساء. وآخر وتحبون المال حبا جما أي قويا شديدا. كلا ألا ارتدعوا واخرجوا من دائرة هذه النظرية المادية قبل حلول العذاب، ونزول ما تكرهون. فآمنوا بالله ورسوله[1].

(1) أيسر التفاسير للجزائري: 397/4

بسم الله الرحمن الرحيم

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ

** أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نعت الله تعالى ما في الجنة، عجب من ذلك أهل الضلالة، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ .... أي ذكرهم الله تعالى صنعته وقدرته.

** وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا إلى الكناسة [سوق الكوفة ترد إليها الإبل بأحمال البضائع، أو تصدر عنها، وهي كالمربد للبصرة] حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت.

** كانت عبادة التفكر دأب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- منذ تحنثه وهو شاب في غار حراء، وظل ذلك ديدنه حتى لحق بالرفيق الأعلى.

** روى ابن حبان عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، عَلَى عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا، فَقَالَ: أَقُولُ يَا أُمَّهْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا، قَالَ: فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ هَذِهِ، قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: (يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي) قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: 190-191]

** وقال أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله فيه نعمة ولي فيه عبرة.

** ولما سئلت أم الدرداء عن أفضل عبادة أبي الدرداء قالت: التفكر والاعتبار.

** الإبل أفضل دواب العرب وأكثرها نفعا وصبرا، وسموها «سفينة الصحراء» ولا مفرد لها من لفظها.

** ومسمى الإبل يشمل:

//الإبل العربية (ذات السنام الواحد) وذكرها يسمى جمل، والأنثى ناقة، والصغير حوار وفصيل، وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم-، قَالَ: (صَلاَةُ الأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفِصَالُ). [مسلم]

// الإبل ذات السنامين في وسط آسيا وتسمى بخاتي، روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا)

//حيوان اللاما وليس له سنام ويوجد بأمريكا الجنوبية أو اللاتينية

** من أشهر الإبل في التاريخ «ناقة صالح»، و «القصواء» التي هاجر عليها سيد الخلق -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقال فيها: (دعوها فإنها مأمورة) وقد اشتراها من أبي بكر الصديق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بأربعمائة درهم، كما كان للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عشرون لِقْحَةً من الإبل [ذات اللبن من النوق وغيرها].

مواقف من السنة النبوية

** عن عبد الله بن جعفر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: قال: «أَردَفني رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَلْفَهُ ذاتَ يومٍ، فأسَرَّ إليَّ حَديثا، لا أُحَدِّثُ به أحدا من الناس، وكان أَحَبَّ ما استَتَرَ به رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- لحَاجَتِه هَدَفا أو حائشَ نَخْلٍ [نخلات مجتمعة]، فدخل حائطا لرَجُلٍ من الأنصار، فَإِذَا فيه جَمَلٌ، فلما رأى النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَنَّ، وذَرَفَتْ عَيناهُ، فأتَاهُ رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فمسحَ ذِفْرَاهُ [الموضع الذي يعرق من قفاه]، فسكتَ، فقال: (مَنْ رَبُّ هذا الجملِ؟ لِمَن هذا الجَملُ؟) فجاءَ فَتى من الأنصارِ، فقال: لي يا رسول الله، فقال له: (أَفلا تَتَّقي اللهَ في هذه البَهيمةِ التي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاها، فَإِنَّهُ شَكا إِليَّ أَنَّكَ تُجيعُهُ وتُدْئِبُهُ [تتعبه بكثرة ما تستعمله]».أخرجه أبو داود.

// وخَرَجَ رَسُولُ اللَّه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي حَاجَةٍ فَمَرَّ بِبَعِيرٍ مُنَاخٍ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ ثُمَّ مَرَّ بِهِ آخِرَ النَّهَارِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَقَالَ: (أَيْنَ صَاحِبُ هَذَا الْبَعِيرِ؟) فَابْتُغِيَ فَلَمْ يُوجَدْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ ثُمَّ ارْكَبُوهَا صِحَاحًا وَارْكَبُوهَا سِمَانًا) كَالْمُتَسَخِّطِ آنِفًا [رواه ابن حبان]

// ومن وصية النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالإبل قوله: (إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنْ الْأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَأَسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ، وَإِذَا عَرَّسْتُمْ بِاللَّيْلِ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ فَإِنَّهَا مَأْوَى الْهَوَامِّ بِاللَّيْلِ) رواه مسلم.

// وعن معاوية بن قرة قال: كان لأبي الدرداء -رضي الله عنه- جمل يقال له دمون فكان إذا استعاروه منه قال: "لا تحملوا عليه إلا كذا وكذا فإنه لا يطيق أكثر من ذلك"، فلما حضرته الوفاة، قال: يا دمون لا تخاصمني غدا عند ربي، فإني لم أكن أحمل عليك إلا ما تطيق [ابن عساكر، كتر العمال 25638]

** ومن فضائل الإبل أن الله تعالى جعلها خير ما يهدى إلى بيته المحرم ومن شعائر ديننا ومظاهر عبادتنا، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحج:36]

** روى الإمام أحمد وأبو يعلى في مسنديهما وغيرُهما بسند صحيح حديثَ جابر في حجة الوداع وفيه: فَكَانَتْ جَمَاعَةُ الْهَدْيِ الَّذِي أَتَى بِهِ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ، وَالَّذِي أَتَى بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِائَةً، فَنَحَرَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِيَدِهِ ثَلَاثَةً وَسِتِّينَ، ثُمَّ أَعْطَى عَلِيًّا فَنَحَرَ مَا غَبَرَ، وَأَشْرَكَهُ فِي هَدْيِهِ، ثُمَّ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ، فَجُعِلَتْ فِي قِدْرٍ، فَأَكَلَا مِنْ لَحْمِهَا، وَشَرِبَا مِنْ مَرَقِهَا.

فدل هذا الحديث على أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نحر ثلاثا وستين بدنة، وأن عليا -رضي الله عنه- نحر ما بقي وهو سبع وثلاثون بدنة. وورد في صحيح البخاري عن أنس أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نحر بيده سَبْعَ بُدْنٍ قياما. وهذا في ظاهره قد يخالف قول جابر رضي الله عنه في أنه نحر ثلاثا وستين.

وقد جمع العلماء رحمهم الله تعالى بين الحديثين فقالوا: إن أنسا رضي الله عنه لم يشاهد إلا نحره -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سبعا فقط بيده، وشاهد جابر رضي الله عنه تمام نحره -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للباقي.

وأما سبب الاقتصار على ذبح ثلاث وستين بدنة، فلعل في ذلك إشارة إلى عدد سني عمره -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. قال ابن القيم في "زاد المعاد": وكان عدد هذا الذي نحره عددَ سني عُمُرِه. اهـــ.

وصف الإبل

** الإبل فيها جمال كما ذكر لنا الله عز وجل حيث قال في سورة النحل: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6)﴾ فكل الحيوانات ذات الأربع عند السير تسير بيد ورجل معًا، فتسير على اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، والعكس كأن تسير على اليد اليسرى مع الرجل اليمنى، إلا الإبل، فتسير على اليد اليمنى والرجل اليمنى معًا واليد اليسرى والرجل اليسرى معًا، فكانت هي الوحيدة في بهيمة الأنعام التي تتحرك بهذا الشكل، ويرى الناظر في تمايلها جمالًا أخاذًا.

ولذلك كان يصيب أصحاب الإبل شيء من الغرور، فروى البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (الْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ)،

قال الأخفش: "الفدادين الأعراب سموا بذلك لارتفاع أصواتهم عند سقي إبلهم وحركاتهم مع رعاء إبلهم والفديد الأصوات والجلبة"

وذلك مما يشاهدونه من جمال الإبل، وإذا اعتلوا ظهورها رأوا أنفسهم فوق الناس، كما أن أثمانها غالية، ولذلك كله قد يدفع صاحبها إلى الغرور إلا من عصمه الله سبحانه وتعالى.

** قال ابن خلدون في المقدمة: أكل العرب الإبل فأخذوا منها الغيرة والغلظة. وأكل الأتراك الخيول فأخذوا منها الشراسة والقوة. وأكل الإفرنج الخنزير فأخذوا منه الدياثة. وأكل الزنوج القرود فأخذوا منها حب الطرب.

وقال ابن القيم رحمه الله: "كل من أَلِفَ ضربا من ضروب الحيوانات اكتسب من طبعه وخُلقه، فإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى".

** الإبل عظيمة البنيان والقوة، وتجلس لنضع عليها حمولتها ثم تقوم بما تحمله بما ينوء عنه العصبة أولوا القوة (تحمل حتى 450كجم).

** والجمل هو الحيوان الوحيد الذي يمكنه حمل 200 كجم والسير بسرعة 60 كلم/اليوم لمدة ثلاثة أيام متواصلة وبدون تناول مياه شرب، أما الجمل الغير محمل فيستطيع العدو بسرعة تزيد على 15كم/ساعة لمدة 18 ساعة متواصلة.

** في سباق بين الخيل والجمال نُظم في أستراليا لمسافة 180 كلم فاز الحصان ابتداء إلا أنه مات بعد السباق، أما الجمل فقد استطاع بعد استراحة قليلة أن يتابع الركض لمسافة 180 كلم أخرى.

** وهي تنقاد للإنسان –حتى لو طفل– في الحركة والسكون والبروك والنهوض فيستعملها في ذلك كيف يشاء ويقتادها بزمامها كل صغير وكبير.

** صبرها على الجوع والعطش مضرب المثل، واكتفائها باليسير ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم.

** تتأثر بالصوت الحسن على غلظ أكبادها.. روى البخاري في الأدب المفرد عن أنس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أن البراء بن مالك كان يحدو بالرجال، وكان أنجشة يحدو بالنساء، وكان حسن الصوت، فقال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير)

** والإبل تؤكل وينتفع بوبرها وجلدها ولبنها، لذلك قيل فيها: «إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت أروت».

** للجمل أنياب ويؤكل لحمه لأن النهي عن ورد عن كل ذي ناب من السباع، كما في حديث أَبِي أُمَامَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم– نَهَى يَوْمَ خَيْبَرَ أَنْ يُؤْكَلَ لَحْمُ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ، وَعَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ.

** فالإبل حلوبة وأكولة وحمولة وركوبة.. وقال الحسن: خص الإبل بالذكر لأنها تأكل النوى وألقت وتخرج اللبن، فقيل له: الفيل أعظم في الأعجوبة، فقال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره ولا يحلب دره.

** ونوم الإبل عجيب فإذا أراد النوم برك ثم يضع رقبته على الأرض وينام ولا ينام على جنب.

** أذن الجمل صغيرة مغطاة بالشعر حماية لها من رمال الصحراء التي قد تحركها الرياح، كما لها القدرة على الانثناء إلى الخلف إذا هبت ريح شديدة.

** أنف الجمل مشقوقة مغطاة بالشعر ويستطيع غلقها حماية لها من الرمال والرياح الشديدة. وتحتوي على غدد تقلل من انبعاث بخار الماء في الزفير توفيرا لمخزون الجسم من الماء.

** رموش العين طبقتين متداخلتين حماية للعين من الرمال، ولذلك يستطيع الجمل النظر في الصحراء مع شدة العواصف الرملية فيها، أما القرنية فهي مصبوغة من الخارج حماية للعين من أشعة الشمس.

**من خصائص التركيبة التي خلقها الله عز وجل فيها: أن الجفن العلوي في عينها ثابت لا يتحرك بخلاف غيرها من الحيوانات، من أجل أن يدفع الرمال عن عينيها، قالوا: بينما الجفن الأسفل هو الذي يتحرك.

** فم الإبل وخاصة الشفة العلوية المشقوقة تساعدها في تناول الأوراق من الأشجار الشوكية دون أدنى ضرر.

** الخف فتركيبه عجيب مرن يحول دون غوصها في الرمال، لكن يصعب عليه السير في الوحل لذلك تتجنب الإبل الأرض الموحلة خشية انزلاقها، وإذا اضطرت للسير فيها تمشي ببطء شديد.

** وزن رجليها الأمامية والجزء من الصدر الأمامي أثقل من الخلف، بعكس غيرها من البقر والغنم، فإن مؤخرتها أثقل من المقدمة، وقيل: إن 65% في المائة من وزن الجمل في الأعضاء الأمامية منه، وهو عميق وضيق ويعطي قوة ارتكاز على الأرض إذا وقفت أو نزلت من منحدر كما يعينها إذا قامت.

** توجد وسائد في مفاصل الأرجل ومقدمة الصدر يبرك عليها الجمل مغطاة بجلد سميك تمكن الحيوان من افتراش الرمال دون التأثر بحرارتها، وتحافظ على اتزان الحيوان أثناء جلوسه.

** للإبل خاصية تغير غطاء جلدها حسب فصول السنة، من وبر كثيف في الشتاء، إلى وبر خفيف جدا في الصيف، ويكون لامع لعكس حرارة الشمس.

** كرش الإبل ثلاث غرف فقط على عكس سائر المجترات ذات الأربعة غرف، والكرش يمكن أن يخزن كمية من المواد المخاطية عند قلة الماء والغذاء.

** كلية الجمل تقلل معدل تكوين البول، وتفرز البول مركز جدا (ضعف تركيز الأملاح في ماء البحر) للحيلولة دون فقد كمية كبيرة من الماء.

// وطريقة تبول الجمل عجيبة حيث يجعل جسمه في اتجاه الريح، ويتبول فيستقبل رذاذ البول سيقانه الخلفية في محاولة لترطيب الجسم وتقليل الفقد من الماء.

** كرات الدم الحمراء بيضاوية الشكل على غير عادتها الدائرية في سائر الثديات مما يمكنها من الدوران مع الدم في أضيق الأوعية الدموية عند ارتفاع لزوجة الدم بسبب قلة الماء، كما أن تركيز خضاب الدم داخلها (الهيموجلوبين) مرتفع مما يمكن الجسم من الحصول على الأكسجين وبالتالي عدم ظهور حالات الإعياء.. كما يحتوي دم الجمل على كمية من بروتين الألبيومين المقاوم لشدة الجفاف.

** الجهاز المناعي في الإبل متطور جدا لذلك يصعب أن تصاب الإبل بالأمراض الوبائية، ولهذا لا توجد لها تحصينات دورية وقائية.

// بل إن الإبل العربية ذات السنام الواحد وجد بها أجسام مناعية إضافية دقيقة على شكل حرف v (nano antibodies) بالإضافة إلى الأجسام المناعية التقليدية ذات شكل y

// والأجسام النانونية أكثر حركة ونشاطا من غيرها، وتلتحم بأهدافها وتدمرها بسهولة، كما أنها أكثر ثباتا في درجات الحرارة العالية وعند تغير حموضة الدم، وقدرتها فائقة في تدمير الخلايا السرطانية.

** الحفاظ على الماء.. الجمل في سبيله للحفاظ على مستوى الماء بالجسم لا يفرز العرق إلا بكميات ضئيلة في الضرورة القصوى، كما أن جهاز ضبط الحرارة بالجسم يستطيع أن يجعل مدى تفاوت الحرارة سبع درجات دون أن يحدث ضرر، ما بين 34-41 درجة مئوية، ولا يضطر إلى التعرق إلا إذا تجاوزت حرارة جسمه 41 درجة، ولا يكون ذلك إلا فترة قصيرة من النهار، أما في المساء فإن الجمل يتخلص من الحرارة التي اختزنها عن طريق الإشعاع إلى هواء الليل البارد، دون أن يفقد قطرة ماء، وهذه الآلية توفر للجمل حوالي خمسة لترات ماء كاملة.

كما أن بعر الجمل يكون جافًا خاليًا من الماء من أجل أن يحافظ على الماء الموجود في الجسد.

// أيضا من مصادر الماء في جسم الجمل غير الشرب ومحتوى العلف «أكسدة الدهون» التي في السنام بطريقة كيميائية فريدة يعجز عنها أي جسم آخر، خاصة أن مخزون الدهن في الجمال عشرة أضعاف الدهن الموجود في الأغنام المشهورة بـــ «اللية الضخمة».

// أما طريقة الشرب.. فالجمل يستطيع أن يشرب 100 لتر ماء خلال 10 دقائق فقط فيعوض النقص الحاد في الماء سريعا، لكن هذا من شأنه أن يقتل الثديات الأخرى لو حدث بنفس معدل السرعة.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ [الإبل العطاش] (55) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ [الواقعة]

// أيضا الجمل يمكنه تناول الماء العذب أو شديد الملوحة [ماء البحر] دون أدنى ضرر.

// بول الإبل قلوي غني بالزلال لذلك فهو نافع في علاج الاستسقاء، فضلا عن خلوة من المواد الممرضة نتيجة رعي الإبل على الأعشاب الطبية.

لبن الإبل

** الناقة الحلوب تدر قرابة أربعين لتر من الحليب يوميا، وتحلب في اليوم ثلاث مرات: صباحا بعد الفجر، وظهرا، ومساءا بعد العشاء.

** الدهون في لبن الإبل (3%) تكون على شكل حبيبات دقيقة، ويحتوي اللبن على نسبة قليلة من الكولسترول، وثلاث أضعاف فيتامين ج مقارنة بلبن البقر، وفيتامين ب1 – ب6 أعلى من لبن الأغنام.

** لبن الإبل يمتاز بمميزات مناعية فريدة، ويستخدم لعلاج الاستسقاء واليرقان ومرض الالتهاب الكبد الوبائي وتحسين وظائف الكبد

// عَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَهْطًا، مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالُوا: إِنَّا قَدِ اجْتَوَيْنَا الْمَدِينَةَ [الجواء داء يصيب الجوف] فَعَظُمَتْ بُطُونُنَا، وَتَهَشَّمَتْ أَعْضَاؤُنَا فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنْ يَلْحَقُوا بِرَاعِي الْإِبِلِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا قَالَ: فَلَحِقُوا بِرَاعِي الْإِبِلِ فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا حَتَّى صَلَحَتْ بُطُونُهُمْ وَأَلْوَانُهُمْ.

// وفي رواية عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ قَدِمَ أَعْرَابٌ مِنْ عُرَيْنَةَ إِلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَأَسْلَمُوا فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ حَتَّى اصْفَرَّتْ أَلْوَانُهُمْ وَعَظُمَتْ بُطُونُهُمْ فَبَعَثَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَى لِقَاحٍ لَهُ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا حَتَّى صَحُّوا

// لبن الإبل يخفض مستوى الجلوكوز بالدم لاحتوائه على مستويات عالية من الأنسولين وبروتينات شبيهة به لا تتكسر بفعل الحامض المعدي عكس حقن عقار الأنسولين لذلك هو مفيد لمرضى السكر

// لبن الإبل نافع في علاج قرحة الإثنى عشر ومضاد أكسدة ومهم لتحسن مناعة الجسم، وأفضل شيء لتطهير الجهاز الهضمي، ومن أنفع المسهلات

– قال الرازي: «لبن اللقاح يشفي أوجاع الكبد، وفساد المزاج»

وأفضل لبن الذي يحلب بعد الولادة بأربعين يوما.

لحوم الإبل

** تذبح الإبل بالنحر وليس الذبح التقليدي، وصفته وخز أول الرقبة مع منطقة الصدر لقطع تجمع الشرايين والوردة، أما الذبح العادي في سائر الحيوانات فيكون أسفل الحنجرة مباشرة.

** لحوم الإبل رغم أنها أقل جودة إلا أنها مصدر هام للبروتين في البلدان الفقيرة وعند انتشار القحط والجفاف، فضلا عن التكلفة الزهيدة في تربية إبل الرعي.

** رأس الجمل لا تؤكل بل تدفن رغم أنها حلال شرعا، وذلك لأن محتواها العظمي كبير جدا واللحم فيها قليل، كما أن الدم يتجمع فيها بعد النحر.

الأحكام الفقهية

** النهي عن الصلاة في معاطن ومبارك الإبل:

// عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أُصَلِّي فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أُصَلِّي فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ؟ قَالَ: لَا) [مسلم]

ومبارك الإبل، هي موضع بروكها، والبرك في اللغة الصدر، وإنما قيل: برك البعير لوقوعه على صدره، والمراد بمباركها: أماكن إقامتها.

// وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (صَلُّوا فِي مَرَابِضِ الغَنَمِ، وَلَا تُصَلُّوا فِي أَعْطَانِ الإِبِلِ) رواه الترمذي، وقال: "حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ."

وأعطان الإبل قيل: مباركها مطلقا، وقيل: ما تقيم فيه وتأوي إليه، وقيل: ما تبرك فيه عند صدورها من الماء؛ أو انتظارها الماء. فهذه ثلاثة أشياء.

والصحيح: أنه شامل لما تقيم فيه الإبل وتأوي إليه كمراحها، سواء كانت مبنية بجدران، أم محوطة بقوس أو أشجار أو ما أشبه ذلك، وكذلك ما تعطن فيه بعد صدورها من الماء. وإذا اعتادت الإبل أنها تبرك في هذا المكان، وإن لم يكن مكانا مستقرا لها فإنه يعتبر معطنا.

فالمبارك والمعاطن للإبل؛ هي الأمكنة التي تلازمها، وبهذا يظهر أنه لا تعارض بين هذا النهي عن الصلاة في مبارك الإبل وبين حديث الهجرة الذي أورده البخاري وفيه: "فَلَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَأُسِّسَ المَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ، فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِالْمَدِينَةِ، وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ، لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ غُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ

فِي حَجْرِ سَعدِ بْنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ المَنْزِلُ، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الغُلاَمَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ، لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالاَ: لاَ، بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا"

فبروك الناقة هنا عارض، فموضعها هذا لا يعد من مبارك ومعاطن الإبل التي نهينا عن الصلاة فيها.

وعلى ذلك؛ فالنهي عن الصلاة في مبارك الإبل: إنما هو في حال بقائها كذلك، مبركا للإبل؛ فإذا نظف، وأزيل ما فيه من آثارها، وبني فيه مسجد مكان ذلك، فلا منع من الصلاة فيه، ولا كراهة.

// في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجة عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَهَى أَنْ يُصَلَّى فِي سَبْعَةِ مَوَاطِنَ: فِي الْمَزْبَلَةِ، وَالْمَجْزَرَةِ، وَالْمَقْبَرَةِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَفِي الْحَمَّامِ، وَفِي مَعَاطِنِ الْإِبِلِ، وَفَوْقَ ظَهْرِ بَيْتِ اللَّهِ) غير أن هذا الحديث ضعيف. قَالَ الترمذي عقبه: "وَحَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ إِسْنَادُهُ لَيْسَ بِذَاكَ الْقَوِيِّ".

وعلة النهي: أن معاطن الإبل مأوى الشياطين، وإذا كانت الإبل موجودة فيها فإنها تشوش على المصلي وتمنعه من كمال الخشوع لأنه يخشى من أذيتها له.

** السترة في الصلاة مثل مؤخرة الرحل:

// روى مسلم عَنْ سِمَاكٍ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِذَا وَضَعَ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلَ مُؤْخِرَةِ الرَّحْلِ فَلْيُصَلِّ وَلَا يُبَالِ مَنْ مَرَّ وَرَاءَ ذَلِكَ).

// وروى الإمام مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّهُ يَسْتُرُهُ إِذَا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ صَلَاتَهُ الْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ) قُلْتُ يَا أَبَا ذَرٍّ مَا بَالُ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْكَلْبِ الْأَحْمَرِ مِنَ الْكَلْبِ الْأَصْفَرِ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَمَا سَأَلْتَنِي فَقَالَ: (الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ)

// وروى ابن ماجه عن أبي سعيد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُصَلِّ إِلَى سُتْرَةٍ وَلْيَدْنُ مِنْهَا وَلَا يَدَعْ أَحَدًا يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ فَإِنْ جَاءَ أَحَدٌ يَمُرُّ فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ). [حسن صحيح]

// عن أبي سعيد الخُدريِّ -رضيَ اللهُ عنه-، قال: سمِعْتُ النبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يقولُ: (إذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ إلَى شَيْءٍ يَسْتُرُهُ مِنْ النَّاسِ فَأَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَجْتَازَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلْيَدْفَعْهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ). [البخاري]

// وروى أبو داود بسنده عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ إِلَى سُتْرَةٍ فَلْيَدْنُ مِنْهَا لَا يَقْطَعْ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ صَلَاتَهُ) حسنه ابن عبد البر والنووي والألباني

// وروى البخاري عن عبد الله بن عبَّاس -رضيَ اللهُ عنهما-، قال: أَقْبَلْتُ رَاكِبًا عَلَى حِمَارٍ أَتَانٍ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الِاحْتِلَامَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي بِمِنًى إِلَى غَيْرِ جِدَارٍ فَمَرَرْتُ بَيْنَ يَدَيْ بَعْضِ الصَّفِّ وَأَرْسَلْتُ الْأَتَانَ تَرْتَعُ فَدَخَلْتُ فِي الصَّفِّ فَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ عَلَيَّ

فيسن للمصلي إذا كان منفردًا أو إمامًا أن يجعل أمامه سترة تمنع المرور بين يديه وتمكنه من الخشوع في أفعال الصلاة.

وهذا يشمل السفر والحضر، كما يشمل الفرض والنفل، قال العلماء: والحكمة في السترة كف البصر عما وراءها، ومنع من يجتاز بقربه.

والأمر في هذا الحديث للاستحباب، لا للوجوب.

- قال ابن عابدين: "صرح في المنية بكراهة تركها، وهي تنزيهية، والصارف للأمر عن حقيقته ما رواه أبو داود عن الفضل بن العباس -رضي الله عنهما- قال: أتانا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ونحن في بادية لنا فصلى في صحراء ليس بين يديه سترة.

ومثله ما ذكره البهوتي من الحنابلة قال: (وليس ذلك بواجب؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما).

- ويستحب ذلك عند الحنفية والمالكية في المشهور، للإمام والمنفرد إذا ظن مرورًا بين يديه، وإلا فلا تسن السترة لهما، قال في الهداية: "ولا بأس بترك السترة إن أمن المرور".

وقال خليل المالكي في مختصره: إن خشيا مروراً -أي الإمام والمنفرد- قال الدسوقي: معلقا: (ولو بحيوان غير عاقل كهرة) انتهى.

- وأطلق الشافعية والحنابلة القول بسنية السترة ولو لم يخش ماراً.

قال النووي في المجموع: "السنة للمصلي أن يكون بين يديه سترة من جدار أو سارية أو غيرهما ويدنو منها".

قالوا لا يغني عن السترة وإن امتنع بسببه المرور بين يديه عادة، لبقاء مرور الشيطان بين يديه لأن ذلك لا يمنع منه"

قال ابن مفلح الحنبلي في الفروع: "ويستحب إلى سترة ولو لم يخش ماراً".. فهذا حاصل أقوال أهل العلم في حكم السترة.

// صِفةُ السُّترةِ في الصَّلاةِ؟

تحصُلُ السُّترةُ للمصلِّي بأن يضَعَ أمامَه شيئًا قائمًا مثلَ مُؤْخرةِ الرَّحلِ، ومقدارُها ذراعٌ، أو أكثرُ من ذلك، وتحصل أيضًا بالجدارِ والعَمودِ والكُرسيِّ، ونحوِ ذلك، وهو مذهبُ الجمهور: الحنفيَّة، والشافعيَّة، والحنابلة

- فعن طَلْحةَ بنِ عُبيدِ اللهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-: (إذا وضَعَ أحدُكم بين يديه مثلَ مُؤْخرةِ الرَّحْلِ فلْيُصَلِّ، ولا يُبالِ مَن مرَّ وراءَ ذلك) [مسلم]، وفي روايةٍ لمسلم أيضا: (كنَّا نُصلِّي والدَّوابُّ تمُرُّ بين أيدينا، فذكَرْنا ذلك لرسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، فقال: (مِثْلُ مُؤْخِرَةِ الرَّحلِ تكونُ بين يدَيْ أحدِكم، ثم لا يضُرُّه ما مرَّ بين يديه)

- وعن عائشةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْها- أنَّها قالت: سُئِلَ رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عن سُترةِ المُصلِّي؟ فقال: مِثْلُ مُؤْخِرَةِ الرَّحْلِ.

- وعن أبي جُحَيفةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَاجِرَةِ فَأُتِيَ بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ فَصَلَّى بِنَا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَنَزَةٌ وَالْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ يَمُرُّونَ مِنْ وَرَائِهَا. [البخاري]

- وعن ابنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ يَوْمَ الْعِيدِ أَمَرَ بِالْحَرْبَةِ فَتُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيُصَلِّي إِلَيْهَا وَالنَّاسُ وَرَاءَهُ وَكَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي السَّفَرِ فَمِنْ ثَمَّ اتَّخَذَهَا الْأُمَرَاءُ. [البخاري]

- وروى مسلم عن ابنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَرْكُزُ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَغْرِزُ الْعَنَزَةَ وَيُصَلِّي إِلَيْهَا، زَادَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ وَهِيَ الْحَرْبَةُ

- وروى البخاري عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ كَانَ يُعَرِّضُ رَاحِلَتَهُ فَيُصَلِّي إِلَيْهَا، قُلْتُ: أَفَرَأَيْتَ إِذَا هَبَّتْ الرِّكَابُ قَالَ كَانَ يَأْخُذُ هَذَا الرَّحْلَ فَيُعَدِّلُهُ فَيُصَلِّي إِلَى آخِرَتِهِ أَوْ قَالَ مُؤَخَّرِهِ وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَفْعَلُهُ.

- وعن أنسِ بنِ مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ تَبِعْتُهُ أَنَا وَغُلَامٌ وَمَعَنَا عُكَّازَةٌ أَوْ عَصًا أَوْ عَنَزَةٌ وَمَعَنَا إِدَاوَةٌ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ حَاجَتِهِ نَاوَلْنَاهُ الْإِدَاوَةَ [البخاري]

// وقد اختلف أهل العلم رحمهم الله في مقدار المسافة، ومن أين تحسب؟

فمنهم من رأى أن المسافة بمقدار ثلاثة أذرع من أمام المصلي؛ لما روى البخاري عن نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- كَانَ إِذَا دَخَلَ الْكَعْبَةَ مَشَى قِبَلَ وَجْهِهِ حِينَ يَدْخُلُ وَجَعَلَ الْبَابَ قِبَلَ ظَهْرِهِ، فَمَشَى حَتَّى يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِدَارِ الَّذِي قِبَلَ وَجْهِهِ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثَةِ أَذْرُعٍ، صَلَّى يَتَوَخَّى الْمَكَانَ الَّذِي أَخْبَرَهُ بِهِ بِلَالٌ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَلَّى فِيهِ.

جاء في «الموسوعة الفقهية»: يسن لمن أراد أن يصلي إلى سترة أن يقرب منها نحو ثلاثة أذرع من قدميه، ولا يزيد على ذلك؛ لحديث أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صلى في الكعبة وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع، وهذا عند الحنفية والشافعية والحنابلة، وهو المفهوم من كلام المالكية؛ لأن الفاصل بين المصلي، والسترة يكون بمقدار ما يحتاجه لقيامه وركوعه وسجوده".

وذهب آخرون إلى أن المسافة بمقدار ممر شاة من مكان سجود المصلي؛ لما روى البخاري ومسلم عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ بَيْنَ مُصَلَّى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَبَيْنَ الْجِدَارِ مَمَرُّ الشَّاةِ.

قال النووي رحمه الله: يَعْنِي بِـــ الْمُصَلَّى: مَوْضِع السُّجُود، وَفِيهِ أَنَّ السُّنَّة قُرْب الْمُصَلَّى مِنْ سُتْرَته ".

ومن العلماء من جمع بين حديث ابن عمر وحديث سهل بن سعد رضي الله عنهم جميعًا، فحمل حديث ابن عمر (ثلاثة أذرع)، على حال القيام، وحديث سهل (ممر الشاة)، على حال السجود.

// يتحمَّلُ الإمامُ عنِ المأمومِ السُّترةَ.

- عنِ ابنِ عبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما- أنَّه قال: صلَّى رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- صلاةً بمِنًى، فجئتُ على حمارٍ لي وقد ناهَزْتُ الحُلُمَ، فمرَرْتُ بين يدَيْ بعضِ الصُّفوفِ، فنزَلْتُ وأرسَلْتُ الحمارَ يرتَعُ، فدخَلْتُ مع الإمامِ، فلم يُنكِرْ ذلك عليَّ أحَدٌ.

- وعن عمرِو بنِ شُعَيبٍ، عن أبيه، عن جدِّه، قال: هبَطْنا مع رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- من ثنيَّةِ أذاخِرَ، فحضَرَتِ الصَّلاةُ- يعني فصلَّى إلى جدارٍ- فاتَّخذَه قِبْلةً ونحن خَلْفَه، فجاءَتْ بَهْمَةٌ تمُرُّ بين يدَيْه، فما زال يُدارِئُها حتَّى لصِقَ بطنُه بالجدارِ، ومرَّتْ من ورائِه [أبو داود]

// ولا يجوزُ المرورُ بين المُصلِّي والسُّترةِ:

- روى البخاري عن أبي جُهَيمٍ -رضيَ اللهُ عنه- قال رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-: (وَ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَيْ الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ [أي من الإثم] لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ) قَالَ أَبُو النَّضْرِ لَا أَدْرِي أَقَالَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ شَهْرًا أَوْ سَنَةً.

- وروى البخاري قال: حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ السَّمَّانُ قَالَ رَأَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ يُصَلِّي إِلَى شَيْءٍ يَسْتُرُهُ مِنْ النَّاسِ فَأَرَادَ شَابٌّ مِنْ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ أَنْ يَجْتَازَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَدَفَعَ أَبُو سَعِيدٍ فِي صَدْرِهِ فَنَظَرَ الشَّابُّ فَلَمْ يَجِدْ مَسَاغًا إِلَّا بَيْنَ يَدَيْهِ فَعَادَ لِيَجْتَازَ فَدَفَعَهُ أَبُو سَعِيدٍ أَشَدَّ مِنْ الْأُولَى فَنَالَ مِنْ أَبِي سَعِيدٍ ثُمَّ دَخَلَ عَلَى مَرْوَانَ فَشَكَا إِلَيْهِ مَا لَقِيَ مِنْ أَبِي سَعِيدٍ وَدَخَلَ أَبُو سَعِيدٍ خَلْفَهُ عَلَى مَرْوَانَ فَقَالَ مَا لَكَ وَلِابْنِ أَخِيكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ إِلَى شَيْءٍ يَسْتُرُهُ مِنْ النَّاسِ فَأَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَجْتَازَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلْيَدْفَعْهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ)

// وللمُصلِّي أنْ يَدفَعَ المارَّ بين يديه من مقامه، ولا يمشي إليه إذا لم يُدرِكْه من موقفه.

نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عبدِ البرِّ، وابنُ بطَّالٍ، والنَّوويُّ

- حُكْمُ المرورِ بين يَدَيِ المُصلّي في المسجِدِ الحرامِ

اختلف العلماءُ في جوازِ المرورِ بين يَدَي المصلِّي في المسجدِ الحرامِ على قولين:

1/ القول الأول: يجوزُ المرور بينَ يدي المصلِّي في المسجدِ الحرامِ، وهو مذهَبُ الحنفيَّة والحنابِلَة، واختاره ابنُ بازٍ، وذلك لأنَّ الناس يكثرون بمكة لأجلِ قضاءِ نُسُكِهم، ويزدحمون فيها، فلو منع المصلي من يجتاز بين يديه لضاق على النَّاس

2/ القول الثاني: لا يجوزُ المرور بينَ يدي المصلِّي في مكَّة ولا في غيرها، وهو مذهب الشافعية وهو رواية عن أحمد، واختاره البخاريُّ وابنُ عثيمينَ، والألبانيُّ

- فعن أبي جُحَيفةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: خَرَجَ رسولُ الله بالهاجِرَة، فصَلَّى بالبطحاءِ الظُّهْرَ والعَصْرَ ركعتين، ونصَبَ بين يديه عَنَزَةً، وتوضَّأَ، فجعل النَّاسُ يتمسَّحونَ بوَضُوئه... ووَجْهُ الدَّلالَةِ أنَّ النبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- نصب سُتْرَةً حينما صلَّى بالبَطْحاء وهي بمكَّة.

- وعن صالحِ بنِ كَيْسانَ، قال: رأيتُ ابنَ عُمرَ يصلِّي في الكعبة، فلا يَدَعُ أحدًا يمرُّ بين يديه، يبادِرُه- قال: يَرُدُّه

- وعن يحيى بنِ أبي كثير، قال: رأيتُ أنسَ بنَ مالكٍ في المسجدِ الحرامِ قد نَصَبَ عَصًا يصلِّي إليها

★★ هيئة الخرور إلى السجود:

اختلف العلماء في هيئة الخرور إلى السجود أهي على اليدين أم هي على الركبتين؟

// فمذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد في إحدى الروايتين عنه أن المصلي يقدم ركبتيه قبل يديه بل نسبه الترمذي إلى أكثر أهل العلم فقال في سننه: "والعمل عليه عند أكثر أهل العلم: يرون أن يضع الرجل ركبتيه قبل يديه، وإذا نهض رفع يديه قبل ركبتيه".

واحتج القائلون بهذا القول بحديث وائل بن حجر قال: رأيت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذا سجد يضع ركبتيه قبل يديه، وإذا نهض رفع يديه قبل ركبتيه. [أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة] وضعفه الدارقطني والبيهقي والألباني، وصححه آخرون من أهل العلم كابن القيم رحمه الله في زاد المعاد.

// وممن اختار تقديم الركبتين على اليدين في النزول شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وذهب مالك والأوزاعي وأصحاب الحديث أن المشروع تقديم اليدين قبل الركبتين، خلافا للبعير الذي ركبتيه في يديه، واستدلوا بحديث أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير وليضع يديه قبل ركبتيه). [أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي] وقال النووي رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد.وصححه الشيخ الألباني وقال: وهذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات رجال مسلم غير محمد بن عبد الله بن الحسن وهو المعروف بالنفس الزكية العلوي وهو ثقة.

وقد ذكر شيخ الإسلام كلاما نفيسا فيما يتعلق بهذه المسالة في الفتاوى فقال: أما الصلاة بكليهما فجائزة باتفاق العلماء. إن شاء المصلي يضع ركبتيه قبل يديه، وإن شاء وضع يديه ثم ركبتيه وصلاته صحيحة في الحالتين باتفاق العلماء، ولكن تنازعوا في الأفضل. انتهى.

★★ أكل لحم الإبل ينقض الوضوء:

الصحيح أنه يجب الوضوء من أكل لحوم الإبل صغيرًا كان أو كبيرًا ذكرًا أو أنثى مطبوخًا أو نيئًا، وعلى هذا دلّت الأدلّة:

1/ روى مسلم من حديث جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سئل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: نعم، قال: أنتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: إن شئت.

2/ روى أبو داود من حديث البراء -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ الْوُضُوءِ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ؟ فَقَالَ: (تَوَضَّئُوا مِنْهَا). وَسُئِلَ عَنْ لُحُومِ الْغَنَمِ؟ فَقَالَ: (لَا تَوَضَّئُوا مِنْهَا) وَسُئِلَ عَنْ الصَّلَاةِ فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ؟ فَقَالَ: (لَا تُصَلُّوا فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ فَإِنَّهَا مِنْ الشَّيَاطِينِ) وَسُئِلَ عَنْ الصَّلَاةِ فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ؟ فَقَالَ: (صَلُّوا فِيهَا فَإِنَّهَا بَرَكَةٌ) [حديث صحيح]

وأما الذين لم يوجبوا الوضوء من لحم الإبل، فإنهم ردوا بأشياء، منها:

أ. أن هذا الحكم منسوخ، ودليلهم:حديث جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كان آخر الأمرين من رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ترك الوضوء مما مسّت النار. [أبو داود] وهذا الرد لا يقابل النص الخاص السابق في صحيح مسلم.

.. ثم إنه ليس فيه دليل على النسخ؛ لأنهم سألوا أنتوضأ من لحوم الغنم؟ فقال: إن شئت. فلو كان هذا الحديث منسوخًا لنسخ حكم لحم الغنم ولما قال: (إن شئت) دل على أن هذه الأحاديث لاحقة لحديث جابر. والنسخ لابد فيه من دليل يفيد أن الناسخ مقدم في التاريخ ولا دليل.

.. ثم إن حديث النسخ عام، وهذا خاص يخصص عموم الحديث.

.. ثم إن سؤاله عن لحوم الغنم يبين أن العلة ليست في مس النار لأنه لو كان كذلك لتساوت لحوم الإبل ولحوم الغنم في ذلك.

ب. واستدلوا بحديث: (الوضوء مما يخرج لا مما يدخل) رواه البيهقي وضعفه

ج. وقال بعضهم: إن المراد من قوله (توضئوا منها): غسل اليدين والفم لما في لحم الإبل من رائحة كريهة ودسومة غليظة بخلاف لحم الغنم! لكن هذا بعيد، لأن الظاهر منه هو الوضوء الشرعي لا اللغوي، وحمل الألفاظ الشرعية على معانيها الشرعية واجب.

د. واستدل بعضهم بقصة لا أصل لها وخلاصتها: أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يخطب ذات يوم، فخرج من أحدهم ريح، فاستحيا أن يقوم بين الناس، وكان قد أكل لحم جزور، فقال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سترًا عليه!: (من أكل لحم جزور فليتوضأ)! فقام جماعة كانوا أكلوا من لحمه فتوضئوا.!

قال الشيخ الألباني رحمه الله: لا أصل لها في شيء من كتب السنة ولا في غيرها من كتب الفقه والتفسير فيما علمت.

والراجح في المسألة: أن الوضوء مما مست النار منسوخ.وأنه يجب الوضوء من لحوم الإبل.

قال النووي: وذهب إلى انتقاض الوضوء به أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ويحيى بن يحيى وأبو بكر ابن المنذر وابن خزيمة واختاره الحافظ أبو بكر البيهقي، وحُكي عن أصحاب الحديث مطلقا وحُكي عن جماعة من الصحابة.

واحتج هؤلاء بحديث جابر بن سمرة الذي رواه مسلم قال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه صح عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في هذا حديثان حديث جابر وحديث البراء وهذا المذهب أقوى دليلا وإن كان الجمهور على خلافه.

وقد أجاب الجمهور عن هذا الحديث بحديث جابر: كان آخر الأمرين من رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ترك الوضوء مما مست النار، ولكن هذا الحديث عام وحديث الوضوء من لحوم الإبل خاص والخاص مقدم على العام. [شرح مسلم]

** هل صحيح أن الخلفاء الراشدين الأربعة أفتوا بأن أكل لحم البعير لا ينقض الوضوء؟

نسبة القول بأن أكل لحم الإبل لا ينقض الوضوء إلى الخلفاء الراشدين، ذكره بعض أهل العلم، كالنووي وغيره. قال النووي رحمه الله: "وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ مَذَاهِبَ:

(أَحَدُهَا): لَا يَجِبُ الْوُضُوءُ بِأَكْلِ شَيْءٍ، سَوَاءٌ مَا مَسَّتْهُ النَّارُ، وَلَحْمُ الْإِبِلِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَبِهِ قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ مَحْكِيٌّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَأَبِي طَلْحَةَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ وَأَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنهم"

وقد أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- نسبة ذلك القول إلى الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، فقال: وَأَمَّا مَنْ نَقَلَ عَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، أَوْ جُمْهُورِ الصَّحَابَةِ، خِلَافَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَوَضَّئُونَ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ: فَقَدْ غَلِطَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا تَوَهَّمَ ذَلِكَ لِمَا نُقِلَ عَنْهُمْ: " أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَوَضَّؤُونَ مِمَّا مَسَّتِ النَّارُ". وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّ أَكْلَ مَا مَسَّ النَّارَ لَيْسَ هُوَ سَبَبًا عِنْدَهُمْ لِوُجُوبِ الْوُضُوءِ، وَالَّذِي أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْوُضُوءِ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ،

لَيْسَ سَبَبُهُ مَسَّ النَّارِ، كَمَا يُقَالُ: كَانَ فُلَانٌ لَا يَتَوَضَّأُ مِنْ مَسِّ الذَّكَرِ، وَإِنْ كَانَ يَتَوَضَّأُ مِنْهُ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ مَذْيٌ"

وهذه الدعوى خطأ من النووي رحمه الله، قد نبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

ويؤيد ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أن الطحاوي، والبيهقي رويا عن جابر بن عبد الله -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب: أكلا خبزا ولحما، فصليا ولم يتوضئا، ثم أخرجا نحوه عن عثمان، والبيهقي عن علي.

فأنت ترى أنه ليس في هذه الآثار ذكر للحم الإبل البتة، وإنما ذكر فيها اللحم مطلقا، وهذا لو كان عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لوجب حمله على غير لحم الإبل؛ دفعا للتعارض، فكيف وهو عن غيره -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فحمله على غير لحم الإبل واجب، من باب أولى؛ حملا لأعمالهم على موافقة الشريعة، لا على مخالفتها؛ ولذلك أورد الطحاوي والبيهقي هذه الآثار في باب «الوضوء مما مست النار» ولم يوردها البيهقي في "باب التوضؤ من لحوم الإبل"، وإنما قال فيه: "وروينا عن علي بن أبي طالب وابن عباس: الوضوء مما خرج وليس مما دخل، وإنما قالا ذلك في ترك الوضوء مما مست النار".

ثم روى البيهقي فيه بسنده عن ابن مسعود أنه أكل لحم جزور، ولم يتوضأ.ثم قال: "وهذا منقطع وموقوف، وبمثل هذا لا يترك ما ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-". وبخاصة أنه ثبت عن الصحابة خلافه، فقال جابر بن سمرة -

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "كنا نتوضأ من لحوم الإبل، ولا نتوضأ من لحوم الغنم" [رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح عنه]

.. قال ابن قدامة رحمه الله: وَمَا عَدَا لَحْمَ الْجَزُورِ مِنْ الْأَطْعِمَةِ لَا وُضُوءَ فِيهِ، سَوَاءٌ مَسَّتْهُ النَّارُ أَوْ لَمْ تَمَسَّهُ.هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ. رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ... "

** فإذا ثبت أن أكل لحم الإبل ناقض للوضوء، فهذا يعني أنه بمنزلة سائر نواقض الوضوء من الريح أو البول وغيرها؛ يجب على من صلى ناسيا انتقاض وضوئه بشيء منها أن يعيد صلاته.

★★ ما الحكمة من الوضوء من لحم الإبل؟

// أولًا:قد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أمر بالوضوء من لحم الإبل، و لم يُبيِّن لنا الحكمة، ونحن نعلم أن الله سبحانه حكيم عليم، لا يَشرع لعباده إلا ما فيه الخير والمصلحة لهم في الدنيا والآخرة، ولا ينهاهم إلا عما يضرهم في الدنيا والآخرة.

والواجب على المسلم أن يتقبّل أوامر الله سبحانه ورسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويعمل بها، وإن لم يَعرف عين الحكمة، كما أن عليه أن ينتهي عما نهى الله عنه ورسوله، وإن لم يَعرف عين الحكمة؛ لأنه عبدٌ مأمور بطاعة الله ورسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، مخلوق لذلك، فعليه الامتثال والتسليم، مع الإيمان بأن الله حكيم عليم، ومتى عَرف الحكمة فذلك خير إلى خير"

// ثانيًا: من أهل العلم من ذهب إلى أن هذا الحكم تعبدي لا تُعلم علته.

قال المرداوي رحمه الله: "الصَّحِيحُ مِنْ الْمَذْهَبِ: أَنَّ الْوُضُوءَ مِنْ لَحْمِ الْإِبِلِ تَعَبُّدِيٌّ، وَعَلَيْهِ الْأَصْحَاب... وَقِيلَ: هُوَ مُعَلَّلٌ"

ومن ذهب إلى أن الحكم معلّل من العلماء، ذكر لذلك جُملةً من الحِكَم، منها:

1/ أن الإبل فيها طبيعة شيطانية، فمن أكلَ منها أَورثه ذلك قوّةً شيطانيّةً، فشُرع الوضوء لإذهاب هذه القوة.

فعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ -رضي الله عنه- قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الصَّلَاةِ فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ، فَقَالَ: (لَا تُصَلُّوا فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ، فَإِنَّهَا مِنْ الشَّيَاطِينِ) [أبو داود] وفي لفظ ابن ماجه: (فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ الشَّيَاطِينِ).. أي من جنس الشياطين ونوعهم

وعَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيِّ -رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (عَلَى ظَهْرِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانٌ، فَإِذَا رَكِبْتُمُوهَا فَسَمُّوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ..) [أحمد وحسنه الألباني]

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "أشار -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الإبل إلى أنها من الشياطين، يريد والله أعلم أنها من جنس الشياطين ونوعهم، فإنّ كلّ عاتٍ متمرّدٍ شيطانٌ من أي الدواب كان، كالكلب الأسود شيطان، والإبل شياطين الأنعام، كما للإنس شياطين... فلعلّ الإنسان إذا أكل لحم الإبل أورثته نفاراً وشماساً وحالًا شبيها بحال الشيطان، والشيطان خُلق من النار، وإنما تُطفئ النّارُ بالماء، فأُمر بالوضوء من لحومها كسراً لتلك السّورة، وقمعًا لتلك الحال، وهذا لأنّ قلبَ الإنسان وخُلقه يتغير بالمطاعم التي يطعمها"

وقال أيضا: "فإذا توضأ العبد من لحوم الإبل كان في ذلك من إطفاء القوة الشيطانية ما يزيل المفسدة، بخلاف من لم يتوضأ منها، فإن الفساد حاصل معه، ولهذا يقال: إن الأعراب بأكلهم لحوم الإبل مع عدم الوضوء منها صار فيهم من الحقد ما صار"

2/ أن لحم الإبل شديدُ التّأثير على الأعصاب، فيُهَيّجها؛ ولهذا كان الطبُّ الحديث ينهى الإنسان العصبي من الإكثار من لحم الإبل، والوُضُوء يسكّن

الأعصاب ويبرِّدها، كما أمر النبيُّ -صلّى الله عليه وسلّم- بالوُضُوء عند الغضب؛ لأجل تسكينه" [الشرح الممتع]

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "وسواء كانت هذه هي الحكمة أم لا؛ فإن الحكمة هي أمر النبيِّ -صلّى الله عليه وسلّم-، لكن إن علمنا الحكمة فهذا فَضْلٌ من الله وزيادة علم، وإن لم نعلم فعلينا التّسليم والانقياد"

** أكل ما سوى اللحم من أجزاء الإبل كالكبد، هل ينقض الوضوء؟

اختلف القائلون بوجوب الوضوء من لحم الإبل -وهم الحنابلة-: هل يشمل ذلك جميع أجزاء الإبل، من كبد وطحال وكرش وشحم، ونحوها؟ على قولين:

القول الأول: أن الوضوء لا يجب إلا من أكل اللحم خاصة.

القول الثاني: أن الوضوء يجب من أكل اللحم ومن غيره من أجزاء الإبل، كالكبد والطحال والشحم ونحوها.

قال ابن قدامة في المغني: "وفيما سوى اللحم من أجزاء البعير، من كبده، وطحاله وسنامه، ودهنه، ومرقه، وكرشه، ومصرانه، وجهان:

أحدهما: لا ينقض؛ لأن النص لم يتناوله، والثاني: ينقض؛ لأنه من جملة الجزور، وإطلاق اللحم في الحيوان يراد به جملته؛ لأنه أكثر ما فيه، ولذلك لما حرم الله تعالى لحم الخنزير، كان تحريما لجملته.

.. وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-: "(وأكل اللحم خاصة من الجزور) وخرج بكلمة "خاصة" ما عدا اللحم كالكرش، والكبد، والشحم، والكلية، والأمعاء، وما أشبه ذلك.

والدليل على ذلك:

1/ أن هذه الأشياء لا تدخل تحت اسم اللحم، بدليل أنك لو أمرت أحدا أن يشتري لك لحما، واشترى كرشا؛ لأنكرت عليه، فيكون النقض خاصا باللحم الذي هو الهبر.

2/ أن الأصل بقاء الطهارة، ودخول غير (الهبر: اللحم) دخول احتمالي، واليقين لا يزول بالاحتمال.

3/ أن النقض بلحم الإبل أمر تعبدي لا تعرف حكمته، وإذا كان كذلك، فإنه لا يمكن قياس غير الهبر على الهبر؛ لأن من شرط القياس أن يكون الأصل معللا، إذ القياس إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، والأمور التعبدية غير معلومة العلة وهذا هو المشهور من المذهب.

والصحيح: أنه لا فرق بين الهبر وبقية الأجزاء، والدليل على ذلك:

1/ أن اللحم في لغة الشرع يشمل جميع الأجزاء، بدليل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة:3]، فلحم الخنزير يشمل كل ما في جلده، بل حتى الجلد، وإذا جعلنا التحريم في لحم الخنزير -وهو منع- شاملا جميع الأجزاء، فكذلك نجعل الوضوء من لحم الجزور -وهو

أمر- شاملا جميع الأجزاء، بمعنى أنك إذا أكلت أي جزء من الإبل، فإنه ينتقض وضوءك.

2/ أن في الإبل أجزاء كثيرة قد تقارب الهبر، ولو كانت غير داخلة لبين ذلك الرسول -صلى الله عليه وسلم- لعلمه أن الناس يأكلون الهبر وغيره.

3/ أنه ليس في شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- حيوان تتبعض أجزاؤه حلا وحرمة، وطهارة ونجاسة، وسلبا وإيجابا، وإذا كان كذلك فلتكن أجزاء الإبل كلها واحدة.

4/ أن النص يتناول بقية الأجزاء بالعموم المعنوي، على فرض أنه لا يتناولها بالعموم اللفظي؛ إذ لا فرق بين الهبر وهذه الأجزاء؛ لأن الكل يتغذى بدم واحد، وطعام واحد، وشراب واحد.

5/ أنه إذا قلنا بوجوب الوضوء وتوضأنا وصلينا، فالصلاة صحيحة قولا واحدا، وإن قلنا بعدم الوجوب وصلينا بعد أكل شيء من هذه الأجزاء بلا وضوء، فالصلاة فيها خلاف، فمن العلماء من قال بالبطلان، ومنهم من قال بالصحة، ففيها شبهة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ) [مسلم]، وقال -صلى الله عليه وسلم: (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ). [البخاري]

6/ أنه وإذا دلت السنة على الوضوء من ألبان الإبل، فإن هذه الأجزاء التي لا تنفصل عن الحيوان من باب أولى.

وعلى هذا يكون الصحيح أن أكل لحم الإبل ناقض للوضوء مطلقا، سواء كان هبرا أم غيره" [الشرح الممتع]

** لا يجب الوضوء من ألبان الإبل

ذهب عامة أهل العلم إلى أنه لا يجب الوضوء من ألبان الإبل، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد -رحمه الله-، ويدل على ذلك عدة أدلة:

1/ أن الأصل عدم نقض الوضوء، وليس هناك دليل صحيح يدل على نقض الوضوء بشرب لبن الإبل.

2/ أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أمر القوم الذين قدموا إلى المدينة وأصابهم مرض أن يشربوا من أبوال الإبل وألبانها، ولو كان شرب لبنها ناقضًا للوضوء لبين ذلك النبي صلى

الله عليه وسلم.

3/ وأما رواه أحمد وابن ماجه عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ -رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لا تَتَوَضَّئُوا مِنْ أَلْبَانِ الْغَنَمِ، وَتَوَضَّئُوا مِنْ أَلْبَانِ الإِبِلِ) وكذلك ما رواه ابن ماجه عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (تَوَضَّئُوا مِنْ لُحُومِ الإِبِلِ، وَلا تَتَوَضَّئُوا مِنْ لُحُومِ الْغَنَمِ، وَتَوَضَّئُوا مِنْ أَلْبَانِ الإِبِلِ، وَلا تَوَضَّئُوا مِنْ أَلْبَانِ الْغَنَمِ)

فكلا الحديثين ضعيف لا يصح الاحتجاج به، وقد ضعفهما الألباني في ضعيف ابن ماجه.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

قال تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة فاطر:10]

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ ﴾ [سورة فاطر:10] من كان يريد أن يكون عزيزا في الدنيا والآخرة، فليلزم طاعة الله، فإنه يدرك بذلك ما يريد، لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعا. والله تعالى يقبل طيب الكلام (كالتوحيد والذكر وقراءة القرآن). والعمل الصالح الذي أخلص العبد فيه النية يرفع الكلم الطيب إلى الله، ليثيب العبد عليه (أو والله يرفع العمل الصالح فيقبله) أما العمل الذي لا إخلاص فيه فلا ثواب عليه. والذين يمكرون المكر السيء بالمسلمين، ويعملون ما يسيء إليهم، وما يضعف أمرهم ويشتت جمعهم ويفرق كلمتهم، فإن الله يعذبهم عذابا أليما ومكرهم يذهب ويضمحل، ولا يحقق غرضا، لأنه سينكشف عما قريب[1].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ ﴾ [سورة فاطر:10] فلْيَطلُبْها من الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله فإن العزة لله جميعًا فالعزيز من أعزه الله والذليل من أَذَله الله، إنهم كانوا يطلبون العزة بالأصنام فاعلموا أن من يريد العزة فليطلبها من مالكها أما الذي لا يملك العزة فكيف يعطيها لغيره إن فاقد الشيء لا يعطيه. وقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [سورة فاطر:10] أي إلى الله يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه إلى الله تعالى، فإذا كان قول بدون عمل فإنه لا يرفع إلى الله تعالى ولا يثيب عليه، وقد ندد الله تعالى بالذين يقولون ولا يعملون فقال: ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾. وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [سورة فاطر:10] اي يعملونها وهي الشرك والمعاصي ﴿لهم عذاب شديد﴾ هذا جزاؤهم،

---

(1) أيسر التفاسير لأسعد حومد:3005/1

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [سورة فاطر:10] أي ومكر الذين يعملون السيئات ﴿هو يبور﴾ اي يفسد ويبطل[1].

قال الزمخشري: كان الكافرون يتعززون بالأصنام، كما قال عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [سورة مريم:81] والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين، كما قال: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم فإن العزة لله جميعًا﴾ فبين أن لا عزة إلا لله ولأوليائه وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون:8] انتهى.

ولا تنافي بين قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [سورة النساء:139] وإن كان الظاهر أنها له لا لغيره، وبين قوله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون:8] وإن كان يقتضي الاشتراك، لأن العزة في الحقيقة لله بالذات، وللرسول بواسطة قربه من الله، وللمؤمنين بواسطة الرسول. فالمحكوم عليه أولًا غير المحكوم عليه ثانيًا[2].

قال الحسن: يعرض القول على الفعل، فإن وافق القول الفعل قبل، وإن خالف رد. وعن ابن عباس نحوه، قال: إذ اذكر الله العبد وقال كلامًا طيبًا وأدّى فرائضه، ارتفع قوله مع عمله؛ وإذا قال و لم يؤدّ فرائضه، رد قوله على عمله؛ وقيل: عمله أولى به[3].

﴿والعملُ الصالحُ﴾ كالعبادة الخالصة ﴿يرفعه﴾ الله تعالى، أي: يقبله. أو: الكلم الطيب، فالرافع على هذا الكلم الطيب، والمرفوع العمل الصالح، أي: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب؛ لأن العمل متوقف على التوحيد، المأخوذ من الكلم الطيب؛ وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع، والكَلِم الطيب يصعد بنفسه، ففيه ترجيح الذكر على سائر العمل. وقيل: بالعكس، أي: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فإذا لم يكن عمل صالح

---

(1) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري:336/3

(2) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: 245/9

(3) البحر المحيط: 245/9

فلا يقبل منه الكلم الطيب. وقيل: والعمل الصالح يرفعُ العامل ويشرفه، أي: مَن أراد العزّة والرفعة فليعمل العمل الصالح؛ فإنه هو الذي يرفع العبد[1].

قال ابن عاشور –رحمه الله–: وقد كان أعظم غرور المشركين في شركهم ناشئا عن قبول تعاليم كبرائهم وسادتهم وكان أعظم دواعي القادة إلى تضليل دهمائهم وصنائعهم، هو ما يجدونه من العزة والافتنان بحب الرئاسة فالقادة يجلبون العزة لأنفسهم والأتباع يعتزون بقوة قادتهم، لا جرم كانت إرادة العزة ملاك تكاتف المشركين بعضهم مع بعض، وتألبهم على مناوأة الإسلام، فوجه الخطاب إليهم لكشف اغترارهم بطلبهم العزة في الدنيا، فكل مستمسك بحبل الشرك معرض عن التأمل في دعوة الإسلام، لا يمسكه بذلك إلا لإرادة العزة، فلذلك نادى عليهم القرآن بأن من كان ذلك صارفه عن الدين الحق فليعلم بأن العزة الحق في اتباع الإسلام وأن ما هم فيه من العزة كالعدم.

و﴿مَنْ﴾ شرطيه، وجعل جوابها ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [سورة فاطر:10]، وليس ثبوت العزة لله بمرتب في الوجود على حصول هذا الشرط فتعين أن ما بعد فاء الجزاء هو علة الجواب أقيمت مقامه واستغني بها عن ذكره إيجازا، وليصل من استخراجه من مطاوي الكلام تقرره في ذهن السامع، والتقدير: من كان يريد العزة فليستجب إلى دعوة الإسلام ففيها العزة لأن العزة كلها لله تعالى، فأما العزة التي يتشبثون بها فهي كخيط العنكبوت لأنها واهية بالية.

وهذا أسلوب متبع في المقام الذي يراد فيه تنبيه المخاطب على خطأ في زعمه كما في قول الربيع بن زياد العبسي في مقتل مالك بن زهير العبسي:

من كان مسرورا بمقتل مالك... فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسرا يندبنه... بالليل قبل تبلج الإسفار

أراد أن مَن سَرّه مقتل مالك فلا يتمتع بسروره ولا يحسب أنه نال مبتغاه لأنه إن أتى ساحة نسوتنا انقلب سروره غما وحزنا إذ يجد دلائل أخذ الثأر من قاتله بادية له، لأن العادة أن القتيل لا يندبه النساء إلا إذا أخذ ثأره.

---

(1) البحر المديد: 167/5

و﴿جَمِيعًا﴾ أفادت الإحاطة فكانت بمنزلة التأكيد للقصر الادعائي فحصلت ثلاثة مؤكدات، فالقصر بمنزلة تأكيدين [لقول السكاكي: ليس الحصر والتخصيص إلا تأكيداً على تأكيد] و ﴿جَمِيعًا﴾ بمنزلة تأكيد. وهذا قريب من قوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: 139] فإن فيه تأكيدين: تأكيدا بـــ"إنَّ" وتأكيدا بـــ ﴿جَمِيعًا﴾ لأن تلك الآية نزلت في وقت قوة الإسلام فلم يحتج فيها إلى تقوية التأكيد.

﴿الْعِزَّةُ﴾ تعريف الجنس. والعزة: الشرف والحصانة من أن ينال سوء. فالمعنى: من كان يريد العزة فانصرف عن دعوة الله إبقاء على ما يخاله لنفسه من عزة فهو مخطئ إذ لا عزة له فهو كمن أراق ماء للمع سراب. والعزة الحق لله الذي دعاهم على لسان رسوله. وعزة المولى ينال حزبه وأولياءه حظ منها فلو اتبعوا أمر الله فالتحقوا بحزبه صارت لهم عزة الله وهي العزة الدائمة،فإن عزة المشركين يعقبها ذل الانهزام والقتل والأسر في الدنيا وذل الخزي والعذاب في الآخرة، وعزة المؤمنين في تزايد الدنيا ولها درجات كمال في الآخرة.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [سورة فاطر:10] كما أتبع تفصيل غرور الشيطان بعواقبه في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: 6] الآية، وبذكر مقابل عواقبه من حال المؤمنين، كذلك أتبع تفصيل غرور الأنفس أهلها بعواقبه وبذكر مقابله أيضا ليلتقي مال الغرورين ومقابلهما في ملتقى واحد، ولكن قدم في الأول عاقبة أهل الغرور بالشيطان ثم ذكرت عاقبة أضدادهم، وعكس في ما هنا لجريان ذكر عزة الله فقدم ما هو المناسب لآثار عزة الله في حزبه وجنده.

والمقصود أن أعمال المؤمنين هي التي تنفع ليعلم الناس أن أعمال المشركين سعي باطل. والقربات كلها ترجع إلى أقوال وأعمال، فالأقوال ما كان ثناء على الله تعالى واستغفار ودعاء، ودعاء الناس إلى الأعمال الصالحة. وتقدم ذكرها عند قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الأحزاب:70]. والأعمال فيها قربات كثيرة. وكان المشركون يتقربون إلى أصنامهم بالثناء والتمجيد كما قال أبو سفيان يوم أحد: اعل هبل، وكانوا يتحنثون بأعمال من طواف وحج وإغاثة ملهوف وكان ذلك كله مشوبا بالإشراك لأنهم ينوون بها

التقرب إلى الآلهة فلذلك نصبوا أصناما في الكعبة وجعلوا هبل وهو كبيرهم على سطح الكعبة، وجعلوا إسافا ونائلة فوق الصفا والمروة، لتكون مناسكهم لله مخلوطة بعبادة الآلهة تحقيقا لمعنى الإشراك في جميع أعمالهم.

فلما قدم المجرور من قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر:10] أفيد أن كل ما يقدم من الكلم الطيب إلى غير الله لا طائل تحته.

وأما قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر:10]، فـ ﴿الْعَمَلُ﴾ مقابل ﴿الْكَلِمُ﴾، أي الأفعال التي ليست من الكلام، وضمير الرفع عائد إلى معاد الضمير المجرور في قوله ﴿إِلَيْهِ﴾ وهو اسم الجلالة من قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [سورة فاطر:10]. والضمير المنصوب من ﴿يَرْفَعُهُ﴾ عائد إلى ﴿الْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ أي الله يرفع العمل الصالح.

والصعود: الإذهاب في مكان عال. والرفع: نقل الشيء من مكان إلى مكان أعلى منه، فالصعود مستعار للبلوغ إلى عظيم القدر وهو كناية عن القبول لديه.

وإنما جيء في جانب العمل الصالح بالإخبار عنه بجملة ﴿يَرْفَعُهُ﴾ ولم يعطف على ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ في حكم الصعود إلى الله مع تساوي الخبرين لفائدتين:

- أولاهما: الإيماء إلى أن نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب على الجملة لأن معظم العمل الصالح أوسع نفعا من معظم الكلم الطيب عدا كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنة مثل دعاء يوم عرفة فلذلك أسند إلى الله رفعه بنفسه كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا تلقاها الرحمن بيمينه، وكلتا يديه يمين، فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه حتى تصير مثل الجبل).

- وثانيهما: أن الكلم الطيب يتكيف في الهواء فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته، وأما العمل الصالح فهو كيفيات عارضة لذوات فاعلة ومفعولة فلا يناسبه إسناد الصعود إليه. وإنما يحسن أن يجعل متعلقا لرفع يقع عليه ويسخره إلى الارتفاع[1].

عن ابن مسعود قال: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله. إن العبد المسلم إذا قال سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله،

(1) التحرير والتنوير، تفسير سورة فاطر، بتصرف.

قبض عليهن ملك يضمهن تحت جناحه، ثم يصعد بهن إلى السماء، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الرحمن، ثم قرأ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر:10].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر:10] قال: ذكر الله ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال: أداء الفرائض، فمن ذكر الله في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله فصعد به إلى الله، ومن ذكر الله و لم يؤد فرائضه فكلامه على عمله، وكان عمله أولى به.

وعن مجاهد ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال: هو الذي يرفع الكلام الطيب.

وعن شهر بن حوشب رضي الله عنه في قوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ قال: القرآن.

وعن مطر في قوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ قال: الدعاء.

وعن الحسن في قوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب إلى الله، ويعرض القول على العمل، فإن وافقه رفع وإلا رد.

وعن الضحاك في قوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب.

وعن شهر بن حوشب في الآية قال: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب.

وأخرج ابن المنذر عن مالك بن سعد قال: إن الرجل ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد أضاع ما سواها، فما زال الشيطان يمنيه فيها، ويزين له حتى ما يرى شيئًا دون الجنة، فقبل أن تعملوا أعمالكم فانظروا ما تريدون بها، فإن كانت خالصة لله فامضوها، وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم، ولا شيء لكم فإن الله لا يقبل من العمل إلا

ما كان له خالصًا، فإنه قال تبارك وتعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

وعن قتادة في قوله ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال: لا يقبل قول إلا بعمل.

وقال الحسن: بالعمل قبل الله.

وعن قتادة ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال: يرفع الله العمل الصالح لصاحبه.

وعن الحسن قال: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتخلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال. من قال حسنًا، وعمل غير صالح، رده الله على قوله. ومن قال حسنًا، وعمل صالحًا، رفعه العمل ذلك، لأن الله قال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1].

(1) الدر النثور: 266/8

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً

قال تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:87]

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ أي هارون ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ [سورة يونس:87] أي من بني إسرائيل ﴿بمصر﴾ أي بأرض مصر ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي متقابلة، ومساجد تصلون فيها ﴿وأقيموا الصلاة﴾ على الوجه الذي شرع لكم. وهذا بناء على أن بني إسرائيل بعد الانتصار على فرعون أخذوا ينحازون من مجتمع فرعون، فأمروا أن يكونوا حيًا مستقلًا استعدادًا للخروج من أرض مصر، فأمرهم الرب تبارك وتعالى أن يجعلوا بيوتهم قبلة أي متقابلة ليعرفوا من يدخل عليهم ومن يخرج منهم، وليصلوا فيها كالمساجد حيث منعوا من المساجد إما بتخريبها وإما بمنعهم منها ظلمًا وعدوانًا. وقوله تعالى ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي وبشر يا رسولنا المؤمنين الصادقين في إيمانهم الكاملين فيه بحسن العاقبة بكرامة الدنيا وسعادة الآخرة بدخول دار السلام[1].

قال ابن عاشور: ووقع الوحي بهذا الأمر إلى موسى وهارون عليهما السلام لأنه من الأعمال الراجعة إلى تدبير أمر الأمة، فيمكن الاشتراك فيها بين الرسول ومؤازره.

والتبوؤ: اتخاذ مكان يسكنه، وهو تفعل من البوء، أي الرجوع، كأن صاحب المسكن يكلف نفسه الرجوع إلى محل سكنه ولو كان تباعد عنه في شؤون اكتسابه بالسير إلى السوق أو الصيد أو الاحتطاب أو قطف الثمار أو نحو ذلك. فمعنى ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ اجعلا قومكما متبوئين بيوتا.

---

(1) أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري:146/2

وفاعل هذا الفعل في الأصل هو الساكن بالمباءة، وإنما أسند هنا إلى ضمير موسى وهارون – عليهما السلام – على طريقة المجاز العقلي، إذ كانا سبب تبوؤ قومهما للبيوت. والقرينة قوله: ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ إذ جعل التبوؤ لأجل القوم.

ومعنى تبوؤ البيوت لقومهما أن يأمرا قومهما باتخاذ البيوت على الوصف الذي يأمرانهم به. وإذ قد كان لبني إسرائيل ديار في مصر من قبل، إذ لا يكونون قاطنين مصر بدون مساكن، وقد كانوا ساكنين أرض "جاسان" قرب مدينة "منفيس" قاعدة المملكة يومئذ في جنوب البلاد المصرية، كما بيناه في سورة البقرة، لا جرم أن تكون البيوت المأمور بتبوئها غير البيوت التي كانوا ساكنيها.

واضطرب المفسرون في المراد من هذه البيوت وذكروا روايات غير ملائمة لحالة القوم يومئذ. فقيل: أريد بالبيوت بيوت العبادة أي مساجد يصلون فيها، وربما حمل على هذا التفسير من تأوله وقوع قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ عقبه، وهذا بعيد لأن الله علم أن بني إسرائيل مفارقون مصر قريبا بإذنه. وقيل: البيوت بيوت السكنى وأمسكوا عن المقصود من هذه البيوت. وهذا القول هو المناسب للتبوؤ لأن التبوؤ السكنى، والمناسب أيضا لإطلاق البيوت، وكونها بمصر.

فالذي يظهر بناء عليه أن هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم الله باتخاذها تهيئة للارتحال وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في"جاسان" قرب مدينة فرعون وقد جاء في التوراة ما يشهد بهذا التأويل في الفصل الرابع من سفر الخروج إن الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البادية ليعملوا عيد الفصح ثلاثة أيام وأن ذلك أول ما سأله موسى من فرعون، وأن فرعون منعهم من ذلك، وأن موسى كرر طلب ذلك من فرعون كل ذلك يمنعه كما في الفصل السابع والفصل الثامن من سفر الخروج، وقد صار لهم ذلك عيدا بعد خروجهم.

وقوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [سورة يونس:87] أي هذه الخيام أو الأخصاص التي تتخذونها تجعلونها مفتوحة إلى القبلة. قاله ابن عطية عن ابن عباس.

والقبلة: اسم في العربية لجهة الكعبة. وتلك الجهة هي ما بين المشرق والمغرب لأن قبلة بلاد مصر كقبلة المدينة ما بين المشرق والمغرب وهي الجنوب، فيجوز أن يكون التعبير عن

تلك الجهة بالقبلة في الآية حكاية لتعبير موسى عنها بما يدل على معنى التوجه إلى الجهة التي يصلون إليها، وهي قبلة إبراهيم، فيكون أمر بني إسرائيل يومئذ جاريا على الملة الحنيفية قبل أن ينسخ بالاستقبال إلى صخرة القدس ويجوز أن يكون موسى قد عبر بما يفيد معنى الجنوب فحكيت عبارته في القرآن باللفظ المرادف له الشائع في التعبير عن الجنوب عند العرب وهو كلمة قبلة.

والحكمة في جعل البيوت إلى القبلة أن الشمس تدخلها من أبوابها في غالب أوقات النهار في جميع الفصول وفي ذلك منافع كثيرة.

والذين فسروا البيوت بأنها بيوت السكنى فسروا قبلة: إما بمعنى متقابلة، وإما بمعنى اجعلوا بيوتكم محل صلاتكم، وكلا التفسيرين بعيد عن الاستعمال. وأما الذين تأولوا البيوت بالمساجد فقد فسروا القبلة بأنها قبلة الصلاة، أي جهة الكعبة.

وعن ابن عباس: كانت الكعبة قبلة موسى. وعن الحسن: كانت الكعبة قبلة كل الأنبياء. وهذا التفسير يلائم تركيب ﴿اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ لأن التركيب اقتضى أن المجعول قبلة هو البيوت أنفسها لا أن تجعل الصلاة فيها إلى جهة القبلة فإذا افتقدنا التأويلات كلها لا نجدها إلا مفككة متعسفة خلا التفسير الذي عولنا عليه، وقد اختلفوا فيه فهدانا الله إليه.

وأسند فعل ﴿اجْعَلُوا﴾ إلى ضمير الجماعة لأن ذلك الجعل من عمل موسى وأخيه وقومهما إذ كل أحد مكلف بأن يجعل بيته قبلة.

وأمرهم بإقامة الصلاة، أي التي فرضها الله عليهم على لسان موسى، والتي كانوا يصلونها من قبل مجيء موسى اتباعا لإبراهيم عليه السلام وأبنائه. والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنة الشغل عن إقامة الصلوات فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة في مدة رحلتهم[1].

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: واجعلوها مساجد تصلون فيها، لأنهم كانوا يخافون فرعون أن يصلّوا في كنائسهم ومساجدهم، قاله الضحاك وابن زيد والنخعي.

الثاني: واجعلوا مساجدكم قِبل الكعبة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة.

---

(1) التحرير والتنوير: 163/11 بتصرف يسير

الثالث: واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبلة لكم في الصلاة فهي قبلة اليهود إلى اليوم قاله ابن بحر.

الرابع: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا، قاله سعيد بن جبير[1].

وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية. وهما معًا ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات. ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئًا كثيرًا في ساعة الشدة.

وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة، ليست خاصة ببني إسرائيل، فهي تجربة إيمانية خالصة. وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة وتجبر الطاغوت، وفسد الناس، وأنتنت البيئة - وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة - وهنا يرشدهم الله إلى أمور:

- اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها -ما أمكن في ذلك- وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها، لتطهرها وتزكيها، وتدربها وتنظمها، حتى يأتي وعد الله لها.

- اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد. تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي؛ وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح؛ وتزاول بالعبادة ذاتها نوعًا من التنظيم في جو العبادة الطهور.

قال ابن عباس: كانوا خائفين من الظهور، فأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبلة، فيصلوا في بيوتهم. وفيه دليل على أن الصلاة في المسجد أفضل إلا لعذر[2].

---

(1) النكت والعيون:179/2

(2) أحكام القرآن، الكيا الهراسي:85/3

شبهات وردود

قد يرى البعض تناقضا في صياغة الآية حيث ثنى (تبوءا) ثم جمع (اجعلوا، أقيموا) ثم أفرد (بشِّر). وتوجيه ذلك: ﴿تبوءا﴾: خاطب موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام لأنهما المتبوعان. ﴿واجعلوا﴾ و ﴿أقيموا﴾: لهما ولقومهما لأن الصلاة واجبة على الجميع. ﴿وبشر﴾: خاص بموسى عليه الصلاة والسلام تشريفا له[1].

قال ابن القيم: هو من أحسن النظم وأبدعه فإنه ثنى أولا إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان ويجب على بنى إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء، وإذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما ثم جمع الضمير فقال وأقيموا الصلاة لأن إقامتها فرض على الجميع ثم وحده في قوله وبشر المؤمنين أن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردءا ووزيرا وكما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولا واحدا كقوله تعالى إني رسول رب العالمين فهذا الرسول هو الذي قيل له وبشر المؤمنين[2].

يقول عماد الشربيني في كتابه «كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها»: وعن قبلة المسلمين الأولى، والتى لا ذكر لها فى القرآن الكريم تراهم يتناقضون فى تحديدها حسب استنباط كل منهم من القرآن الكريم.

فيذهب محمد نجيب إلى: أن القبلة الأولى هى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، لا بيت المقدس، ويعلل ذلك بأنه: "قد ورد فى القرآن الكريم أن الله عز وجل أمر سيدنا موسى وسيدنا هارون باتخاذ بيوتهما قبلة لهما وللمؤمنين عندما يصلون متجهين إليها قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:87] فكان لابد للرسول وللمسلمين معه أن يقتدوا بسيدنا موسى، ويتخذوا من بيت النبى الذى اختاره ليكون قبلة كما اتخذ موسى بيته قبلة، ويذهب إلى أن تلك القبلة لم تنسخ فيقول: "والأمر بالقبلة الأولى ليس أمرًا قد انتهى أمره فلا لزوم له فى القرآن إذ أنه أمر موجود ليتبعه المسلمون إذا اقتضى الأمر ذلك. أ.هـ.

---

(1) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام:339/6 بتصرف

(2) بدائع الفوائد حـ4 صـ 10 ـ صـ 11

... هذا في حين نرى مصطفى المهدوى يذهب إلى أن القبلة الأولى منسوخة، ويصرح بأن تلك القبلة الأولى لا علم له بها فيقول: "وكان الله -تبارك وتعالى- قد شاء أن يستقبل رسوله في صلاته قبلة أخرى، الله أعلم بها حيث جعلها من سنة نبيه ثم نسخها بقرآن".

... أما أحمد صبحي؛ فيقر بتوجه النبي صلى الله عليه وسلم، ومن آمن معه نحو بيت المقدس فيقول: "فالعرب مسلمون ومشركون كانوا يتوجهون في الصلاة إلى الكعبة، وامتحنهم الله بأن أمرهم بالتوجه نحو القدس، وأطاع النبي والمؤمنون معه، وصبروا على أقاويل السفهاء، وبعد أن نجح النبي، والمؤمنون في الاختبار نزل الوحي يجيب برجاء رسول الله بالعودة إلى التوجه للبيت الحرام أ.هـ.

... ولم يبين لنا أحمد صبحي من أين دليله في توجه النبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه نحو بيت المقدس؟!!

ثم إن إقراره بذلك يتناقض مع عدم إيمانه بالنسخ في الشريعة الإسلامية بمعنى الحذف والإلغاء. حيث نسخ القرآن الكريم ما ورد في السنة المطهرة من التوجه في الصلاة أول الأمر إلى بيت المقدس[1].

نصيحة

لابد أن يجعل البيت بيتًا يذكر الله فيه بأنواع الذكر، سواءً كان ذكر القلب أو ذكر اللسان أو الصلوات أو قراءة القرآن في البيت، أو قراءة كتب العلم، ومدارسة أنواع العلم، قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت) وكثير من بيوت المسلمين اليوم -حقيقةً- ميتة بمعنى الكلمة؛ لأنها مليئة بالمنكرات والمعاصي، والألحان، والكذب، والغيبة، والنميمة، والاختلاط، والتبرج بين الأقارب من غير المحارم، أو الجيران الذين يدخلون في البيوت، كثير من البيوت مليئة بالمنكرات على جدرانها، وفي أرصفها، وفي خزاناتها، وفي أنواع اللهو المعمول فيها، هذه البيوت كيف تدخلها الملائكة! البيت الذي يعج بالشياطين كيف تدخله الملائكة، البيت من هذا النوع كيف يمكن أن يكون مصدراً للإصلاح؟! إذًا النصيحة: (مثل البيت الذي يذكر

---

(1) كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها: 592/1

الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت) فأحيوا بيوتكم -رحمكم الله- بأنواع الذكر وأصنافه.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا

قال تعالى:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:14-17]

﴿وإنا منَّا المسلمون ومنَّا القاسطون﴾ أي الجائرون عن قصد السبيل وهو الإسلام. فمن اسلم أي انقاد لله تعالى بطاعته وخلص من الشرك به فهؤلاء تحروا الرشد وفازوا به، ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [سورة الجن:15] توقد بهم وتستعر عليهم وعلى الكافرين الجائرين أمثالهم[1].

قال مجاهد وقتادة: والبأس القاسط: الظالم، ومنه قول الشاعر:

قَوْمٌ هُمُ قتلُوا ابنَ هِنْدٍ عَنْوةً... عَمْرًا وهُمْ قَسطُوا على النُّعمَانِ[2]

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ [سورة الجن:14]؛ المؤمنون، ﴿ومنّا القاسطون﴾؛ الجائرون عن طريق الحق، الذي هو الإيمان والطاعة، وهم الكفرة ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ [سورة الجن:14]؛ طلبوا هدى. والتحرّي: طلب الأحرى، أي الأولى، وجمع الإشارة باعتبار معنى «مَن»، ﴿وأمَّا القاسطون﴾؛ الحائدون عن الإسلام، ﴿فكانوا﴾ في علم الله

---

(1) أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري:321/4

(2) تفسير البحر المحيط: 368/10

﴿لجهنم حَطَبًا﴾؛ وقودًا، وفيه دليل على أنَّ الجنِّي الكافر يُعذّب في النار وإن كان منها، والله أعلم بكيفية عذابه، وقد تقدّم أنّ المشهور أنهم يُثابون على طاعتهم بالجنة[1].

﴿وَمِنَّا القاسطون﴾ يعني الضالمين، يقال قسط الرجل إذا جار، وأقسط بالألف إذا عدل[2].

والقاسطون: هم الجائرون الظالمون، جمع قاسط، وهو الذى ترك الحق واتبع الباطل، اسم فاعل من قسط الثلاثى بمعنى جار، بخلاف المقسط فهو الذى ترك الباطل واتبع الحق مأخوذ من أقسط الرباعى بمعنى عدل[3].

القاسطون غير المقسطين، فالمقسطون على منابر من نور كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا)، أما القاسطون فهم: الجائرون الظالمون[4].

والقاسط: اسم فاعل قسط من باب ضرب قسطا بفتح القاف وقسوطا بضمها، أي جار فهو كالظلم يراد به ظلم المرء نفسه بالإشراك. وفي الكشاف: أن الحجاج قال لسعيد بن جبير حين أراد قتله ما تقول في؟ قال: قاسط عادل، فقال القوم ما أحسن ما قال حسبوا أنه وصفه بالقسط بكسر القاف والعدل، فقال الحجاج: يا جهلة إنه سماني ظالما مشركا وتلا لهم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [سورة الجن:15] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:1][5].

﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين، مسلمين وقاسطين، يفيد ازدواج طبيعة الجن، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله وهو تقرير ذو أهمية بالغة في تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق. فأغلبنا حتى الدارسين الفاقهين على اعتقاد أن الجن يمثلون

---

(1) البحر المديد: 432/6

(2) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: 2489/1

(3) التفسير الوسيط لسيد طنطاوي:4346/1

(4) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي: 8/76

(5) التحرير والتنوير:220/29

الشر، وقد خلصت طبيعتهم له. وأن الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة. وهذا ناشئ من مقررات سابقة في تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة!

﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين:

أحدهما: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الجن:16] أي: كثيرًا. والمراد بذلك سَعَة الرزق. كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة:66] وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:96] وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم، كما قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبتليهم، من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية؟.

ذكر من قال بهذا القول: قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ يعني بالاستقامة: الطاعة. وقال مجاهد: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ قال: الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والسدي، ومحمد بن كعب القرظي.

وقال قتادة: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ يقول: لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا.

وقال مجاهد: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ أي: طريقة الحق. وكذا قال الضحاك، واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا في قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم به.

وقال مقاتل: فترلت في كفار قريش حين مُنعوا المطر سبع سنين.

والقول الثاني: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ الضلالة ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ أي: لأوسعنا عليهم الرزق استدراجا، كما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:44] وكقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:55-56] وهذا قول أبي مِجلز لاحق بن حُمَيد؛ فإنه في قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ [سورة الجن:16] أي: طريقة الضلالة. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وحكاه البغوي عن الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، والكلبي، وابن كيسان. وله اتجاه، وتيأيد بقوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾

وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ أي: عذابا شاقا شديدًا موجعًا مؤلما[1].

قال ابن قتيبة: المعنى لو آمنوا جميعًا لوسعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق مثلًا؛ لأن الخير كله والرزق بالمطر، وهذا كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ [المائدة: 65] الآية، وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: 2 /3] وقوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: 12/10] الآية.

وقيل: المعنى: وأن لو استقام أبوهم على عبادته، وسجد لآدم و لم يكفر، وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم، واختار هذا الزجاج. والماء الغدق: هو الكثير في لغة العرب.

---

(1) تفسير ابن كثير: 243/8

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم، فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم. وقال الكلبي: المعنى وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر، فكانوا كلهم كفارًا، لأوسعنا أرزاقهم مكرًا بهم واستدراجًا حتى يفتنوا بها، فنعذبهم في الدنيا والآخرة. وبه قال الربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، والثمالي، ويمان بن زيان، وابن كيسان، وأبو مجلز، واستدلوا بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 44]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: 33] الآية، والأوّل أولى.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الجن:17] أي: ومن يعرض عن القرآن، أو عن العبادة، أو عن الموعظة، أو عن جميع ذلك يسلكه أي: يدخله عذابًا صعدًا أي: شاقًا صعبًا[1].

﴿وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم مآء غدقًا لنفتنهم فيه* ومن يُعرِض عن ذكر ربه يسلكه عذابًا صعدًا﴾.. يقول الله سبحانه إنه كان من مقالة الجن عنا: ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفورًا نغدقه عليهم، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء.. ﴿لنفتنهم فيه﴾ ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون.

وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم في هذه النقطة، يزيد مدلولها توكيدًا بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى الله سبحانه. ومثل هذه اللفتات كثير في الأسلوب القرآني، لإحياء المعاني وتقويتها وزيادة الانتباه إليها.

وهذه اللفتة تحتوي جملة حقائق، تدخل في تكوين عقيدة المؤمن، وتصوره عن جريان الأمور وارتباطاتها.

والحقيقة الأولى: هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله، وبين إغداق الرخاء وأسبابه؛ وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه. وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة. وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة

---

(1) فتح القدير للشوكاني:326/7

حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة، ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء. ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية.. وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة.

وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف، حتى استقاموا على الطريقة، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء، وتتدفق فيها الأرزاق. ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابًا. وما يزالون في نكد وشظف، حتى يفيئوا إلى الطريقة، فيتحقق فيهم وعد الله.

وإذا كانت هناك أمم لا تستقيم على طريقة الله، ثم تنال الوفر والغنى، فإنها تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء. وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته..

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هذه الآية: هي أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [سورة الأنبياء:35] والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأنذر من الصبر على الشدة! على عكس ما يلوح للنظرة العجلى.. فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها، بحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومقاومة؛ ومن ذكر لله والتجاء إليه واستعانة به، حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره. فأما الرخاء فينسي ويلهي، ويرخي الأعضاء وينيم عناصر المقاومة في النفس، ويهيئ الفرصة للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان!

إن الابتلاء بالنعمة في حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تعصم من الفتنة.. نعمة المال والرزق كثيرًا ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر، مع السرف أو مع البخل، وكلاهما آفة للنفس والحياة.. ونعمة القوة كثيرًا ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور، والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس، والتهجم على حرمات الله.. ونعمة الجمال كثيرًا ما تقود إلى فتنة الخيلاء والتيه وتتردى في مدارك الإثم والغواية.. ونعمة الذكاء كثيرًا ما تقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين.. وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر الله فعصمه الله..

والحقيقة الثالثة أن الإعراض عن ذكر الله، الذي قد تنتهي إليه فتنة الابتلاء بالرخاء، مؤد إلى عذاب الله. والنص يذكر صفة للعذاب ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الجن:17].. توحي بالمشقة مذ كان الذي يصعد في المرتفع يجد مشقة في التصعيد كلما تصعد. وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد. فجاء في موضع: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾. وجاء في موضع: ﴿سأرهقه صعوداً﴾ وهي حقيقة مادية معروفة. والتقابل واضح بين الفتنة بالرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء!

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ

قال تعالى:

{وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ} [سبأ:54/51]

ولو رأيت يا محمد هؤلاء المكذبين، حين يعتريهم الفزع من رؤية العذاب المهول يوم القيامة، إذا لرأيت شيئا يعجز القول عن وصفه، فهم لا يستطيعون الهرب والنجاة، ولا مهرب لهم ولا ملجأ (فوت)، بل يؤخذون من أول وهلة (رأسا) من الموقف إلى النار. ﴿فزعوا﴾ خافوا عند الموت أو عند البعث. ﴿فلا فوت﴾ فلا مهرب، ولا نجاة من العذاب. ﴿مكان قريب﴾ موقف الحساب.

وحين يرون العذاب يقولون: آمنا بالحق (بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث) ولكن أنى لهم ذلك، وكيف لهم الإيمان بسهولة من مكان بعيد - وهو الدنيا - التي انقضى وقتها، وأصبحت بعيدة عنهم، لأن الإيمان والعمل يجب أن يكونا في الدار الدنيا، أما الآخرة فليست دارا لقبول التكاليف، إنما هي دار الجزاء. ﴿التناوش﴾ التناول السهل لشيء قريب، وهو هنا تناول الإيمان والتوبة. ﴿من مكان بعيد﴾ من الآخرة.

وكيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق حينما كانوا في الدنيا، وكذبوا الرسل، وكانوا يرجمون بالظنون ﴿يقذفون بالغيب﴾ التي لا علم لهم فيخطئون الهدف، وكانوا يفعلون ذلك من مكان بعيد، فيتكلمون في الرسول كلاما لا مستند لهم فيه، فيقولون: ساحر وكاهن ومجنون.. ويكذبون بالبعث والنشور. ﴿يقذفون بالغيب﴾ يرجمون بالظنون[1].

---

(1) أيسر التفاسير، أسعد حومد، 3538/1

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ [سورة سبأ:51] أي لرأيت أمرًا قطعيًا، يقول تعالى لرسوله ولو ترى إذ فزع المشركون في ساحات فصل القضاء يوم القيامة فزعوا من شدة الهول والخوف وقد أُخذوا من مكان قريب والقوا في جهنم لرأيت أمرًا فظيعًا في غاية الفظاعة. وقوله ﴿فلا فوت لهم﴾ لا يفوتون الله تعالى ولا يهربون من قبضته.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي قالوا بعد ما بُعثوا وفزعوا من هول القيامة قالوا آمنا به أي بالله وكتابه ولقائه ورسوله، قال تعالى ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي التناول للإيمان من مكان بعيد إذ هم في الآخرة والإيمان كان في الدنيا فكيف يتناولونه بهذه السهولة ويقبل منهم وينجون من العذاب هذا بعيد جدًا ولن يكون أبدًا وقد كفروا به من قبل أي لاسيما وأنهم قد عُرض عليهم الإيمان وهم قادرون عليه فرفضوه فكيف يمكنون منه الآن.

وقوله ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ أي وها هم اليوم في الدنيا يقذفون بالغيب محمدًا صلى الله عليه وسلم بقواصم الظهر مرة يقولون كاذب ومرة ساحر ومرة شاعر وأخرى مجنون وكل هذا رجما بالغيب لا شبهة لهم فيه ولا أدنى ريبة تدعوهم غليه.

وأخيرا قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهو الإيمان الموجب للنجاة كما فعل بأشياعهم أي أشباههم وأنصارهم من أهل الكفر والتكذيب لما جاءهم العذاب قالوا آمنا و لم ينفعهم إيمانهم وأهلكوا فألقوا في الجحيم، وقوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي مشركو قريش وكفارها أخبر تعالى أنهم كانوا في الدنيا في شك من توحيدنا ونبينا ولقائنا مريب اي موقع لهم في الريب والاضطراب فلم يؤمنوا فماتوا على الكفر والشرك وهذا جزاء من يموت على الشرك والكفر[1].

قال ابن عاشور: والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تسلية له أو لكل مخاطب. وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل. والتقدير: لرأيت أمرا فظيعا.

---

(1) أيسر التفاسير، للجزائري، 331/3

ومفعول ﴿تَرَى﴾ يجوز أن يكون محذوفا، أي لو تراهم، أو ترى عذابهم ويكون ﴿إِذْ فَزِعُوا﴾ ظرفا لـــ ﴿تَرَى﴾، ويجوز أن يكون ﴿إِذْ﴾ هو المفعول به وهو مجرد عن الظرفية، أي لو ترى ذلك الزمان، أي ترى ما يشمل عليه.

والفزع: الخوف المفاجئ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع». وهذا الفزع عند البعث يشعر بأنهم كانوا غير مهيئين لهذا الوقت أسباب النجاة من هوله.

والأخذ: حقيقته التناول وهو هنا مجاز في الغلب والتمكن بهم كقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة:10]. والمعنى: أمسكوا وقبض عليهم لملاقاة ما أعد لهم من العقاب.

وجملة ﴿فَلا فَوْتَ﴾ معترضة بين المتعاطفات. والفوت: التفلت والخلاص من العقاب.

وفي "الكشاف": "ولو، وإذ، والأفعال التي هي فزعوا، وأخذوا، وحيل بينهم، كلها للمضي، والمراد بها الاستقبال لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما كان ووجد لتحققه" اهـــ. ويزداد عليها فعل ﴿وَقَالُوا﴾.

والمكان القريب: المحشر، أي أخذوا منه إلى النار، فاستغنى بذكر ﴿مِن﴾ الابتدائية عن ذكر الغاية لأن كل مبدأ له غاية، ومعنى قريب المكان أنه قريب إلى جهنم بحيث لا يجدون مهلة لتأخير العذاب.

وعطف ﴿وَقَالُوا﴾ على ﴿أُخِذُوا﴾ أي يقولون حينئذ: آمنا به.

وضمير ﴿بِهِ﴾ للوعيد أو ليوم البعث أو للنبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن، إذا كان الضمير محكيا من كلامهم لأن جميع ما يصح معادا للضمير مشاهد لهم وللملائكة، فأجمعوا فيما يراد الإيمان به لأنهم ضاق عليهم الوقت فاستعجلوه بما يحسبونه منجيا لهم من العذاب، وإن كان الضمير من الحكاية فهو عائد إلى الحق من قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ [سبأ: 48] لأن الحق يتضمن ذلك كله.

ثم استطرد الكلام بمناسبة قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ إلى إضاعتهم وقت الإيمان بجملة ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ إلى آخرها.

و ﴿أَنَّى﴾ استفهام عن المكان وهو مستعمل في الإنكار.

و ﴿التَّنَاوُشُ﴾ قرأه الجمهور بواو مضمومة بعد الألف وهو التناول السهل أو الخفيف وأكثر وروده في شرب الإبل شربا خفيفا من الحوض ونحوه.

وجملة: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ مركب تمثيلي يفيد تشبيه حالهم إذ فرطوا في أسباب النجاة وقت المكنة منها حين كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم ويحرضهم ويحذرهم وقد عمرهم الله ما يتذكر فيه من تذكر ثم جاؤوا يطلبون النجاة بعد فوات وقتها بحالهم كحال من يريد تناوشها وهو في مكان بعيد عن مراده الذي يجب تناوله.

وهذا التمثيل قابل لتفريق أجزائه بأن يشبه السعي بما يحصل بسرعة بالتناوش ويشبه فوات المطلوب بالمكان البعيد كالحوض.

وجملة ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ في موضع الحال، أي كيف يقولون آمنا به في وقت الفوات والحال أنهم كفروا به من قبل في وقت التمكن فهو كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم:43].

و﴿يَقْذِفُونَ﴾ عطف على ﴿كَفَرُوا﴾ فهي حال ثانية. والتقدير: وكانوا يقذفون بالغيب. واختيار صيغة المضارع لحكاية الحالة كقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هود:38].

والقذف: الرمي باليد من بعد. وهو هنا مستعار للقول بدون ترو ولا دليل، أي يتكلمون فيما غاب عن القياس من أمور الآخرة بما لا علم لهم به إذ أحالوا البعث والجزاء وقالوا لشركائهم: هم شفعاؤنا عند الله.

ولك أن تجعل ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ تمثيلا مثل ما في قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾، شبهوا بحال من يقذف شيئا وهو غائب عنه لا يراه فهو لا يصيبه البتة.

وحذف مفعول ﴿يَقْذِفُونَ﴾ لدلالة فعل ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ عليه، أي يقذفون أشياء من الكفر يرمون بها جزافا.

والغيب: المغيب. والباء للملابسة، والمجرور بها في موضع الحال من ضمير ﴿يَقْذِفُونَ﴾، أي يقذفون وهم غائبون عن المقذوف من مكان بعيد.

و ﴿مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هنا مستعمل في حقيقته يعني من الدنيا، وهي مكان بعيد عن الآخرة. للاستغناء عن استعارته لما لا يشاهد منه بقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ كما علمت، فتعين للحقيقة لأنها الأصل، وبذلك فليس بين لفظ ﴿بَعِيدٍ﴾ المذكور هنا والذي في قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ ما يشبه الإيطاء لاختلاف الكلمتين بالمجاز والحقيقة.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ عطف على الجمل الفعلية نظائر هذه وهي جمل ﴿فَزِعُوا﴾، ﴿وَأُخِذُوا﴾، ﴿وَقَالُوا﴾ أي وحال زجهم في النار بينهم وبين ما يأملونه من النجاة بقولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ وما يشتهونه هو النجاة من العذاب أو عودهم إلى الدنيا، فقد حكي عنهم في آيات أخرى أنهم تمنوه ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام:27]، ﴿ربنا أرجعنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل﴾.

والتشبيه في قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ تشبيه للحيلولة بحيلولة أخرى وهي الحيلولة بين بعض الأمم وبين الإمهال حين حل بهم عذاب الدنيا، مثل فرعون وقومه إذ قال ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس:90]، وكذلك قوم نوح حين رأوا الطوفان، وما من أمة حل بها عذاب إلا وتمنت الإيمان حينئذ فلم ينفعهم إلا قوم يونس.

والأشياع: المشابهون في النحلة وإن كانوا سالفين. وأصل المشايعة المتابعة في العمل والحلف ونحوه، ثم أطلقت هنا على مطلق المماثلة على سبيل المجاز المرسل بقرينة قوله ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي كما فعل بأمثالهم في الدنيا من قبل، وأما يوم الحشر فإنما يحال بينهم وبين ما يشتهون وكذلك أشياعهم في وقت واحد.

وفائدة هذا التشبيه تذكير الأحياء منهم وهم مشركوا أهل مكة بما حل بالأمم من قبلهم ليوقنوا أن سنة الله واحدة وأنهم لا تنفعهم أصنامهم التي زعموها شفعاء عند الله.

وجملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ مسوقة لتعليل الجمل التي قبلها. وفعل بهم جميع ما سمعت لأنهم كانوا في حياتهم في شك من ذلك اليوم وما وصف لهم من أهواله. وإنما جعلت حالتهم شكا لأنهم كانوا في بعض الأمور شاكين وفي بعضها موقنين، ألا ترى قوله تعالى: ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية:32] وإذا كان الشك مفضيا إلى تلك العقوبة فاليقين أولى بذلك، ومآل الشك واليقين بالانتفاء واحد إذ ترتب عليهما عدم الإيمان به وعدم النظر في دليله.

ويجوز أن تكون جملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئة عن سؤال يثيره قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ كأن سائلا سأل هل كانوا طامعين في حصول ما تمنوه؟ فأجيب بأنهم كانوا يتمنون ذلك ويشكون في استجابته فلما حيل بينهم وبينه غشيهم اليأس، واليأس بعد الشك أوقع في الحزن من اليأس المتأصل.

والمريب: الموقع في الريب. والريب: الشك، فوصف الشك به وصف له بما هو مشتق من مادته لإفادة المبالغة كقولهم: شعر شاعر، وليل أليل، أو ليل داج. ومحاولة غير هذا تعسف[1].

قوم غفلوا عن تحقيق الإيمان، وتربيته، بصحبة أهل الإيقان، حتى إذا كُشف بعد الموت عن مقامهم القصير، ومكانهم البعيد، قالوا: آمنا وتيقَّنا، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد. وقوم اشتغلوا بالبطالة والتقصير، وصرفوا في الشهوات والحظوظ عمرهم القصير، وتوغلوا في أشغال الدنيا وزخارفها، فذهلوا عن الجد والتشمير، فإذا انقضت عنهم أيام الدنيا حيل بينهم وبين ما يشتهون، من اغتنام الأوقات، وتعمير الساعات، لنيل المراتب والدرجات، وهنالك يقع الندم حين لم ينفع، ويُطلب الرجوع فلا يُسْمَع.

قال القشيري: إذا تابوا وقد أُغْلِقَت الأبواب، وندمُوا وقد تقطعت بهم الأسباب، فليس إلا الحسرات مع الندم، ولات حين ندامة! كذلك مَن استهان بتفاصيل فترته، و لم يَستَفِقْ من غَفْلَتِه فتجاوز حده، ويُعْفَى عنه كَرَّه. فإذا استمكن في القسوة، وتجاوز في سوء الأدب

---

(1) التحرير والتنوير:103/22

حدَّ القلة، وزاد على مقدار الكثرة، فيحصل لهم من الحق رَدّ، ويستقبلهم حجاب البُعد. فعند ذلك لا يُسمع لهم دعاء، ولا يُرْحَمُ لهم بكاء، كما قيل، وأنشد:

سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا... فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ[1]

(1) تفسير ابن عجيبة، البحر المديد:157/5

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ

قال تعالى:

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود:119/118]

قال ابن عجيبة: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [سورة هود:118] متفقين على الإيمان أو الكفران، لكن مقتضى الحكمة وجود الاختلاف؛ ليظهر مقتضيات الأسماء في عالم الشهادة؛ فاسمه: الرحيم يقتضي وجود من يستحق الكرم والرحمة، وهم: أهل الإيمان. واسمه: المنتقم والقهار يقتضي وجود من يستحق الانتقام والقهرية، وهم أهل الكفر والعصيان. قال البيضاوي: وفيه دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد، وأن ما أراد يجب وقوعه.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾ [سورة هود:118]؛ بعضهم على الحق، وهم أهل الرحمة والكرم؛ وبعضهم على الباطل، وهم أهل القهرية والانتقام. أو مختلفين في الأديان والملل والمذاهب، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ [سورة هود:119]؛ إلا ناسًا هداهم الله من فضله، فاتفقوا على ما هو أصل الدين والعمدة فيه، كالتوحيد والإيمان بجميع الرسل وبما جاؤوا به، وهم المؤمنون.

وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾؛ إن كان الضمير للناس، فالإشارة إلى الاختلاف، واللام للعاقبة، أي: ولتكون عاقبتهم الاختلاف خلقهم، وإن كان الضمير يعود على «من»، فالإشارة إلى الرحمة، أي: إلا من رحم ربك وللرحمة خلقهم. ﴿وتمت كلمة ربك﴾ الأزلية

على ما سبق له الشقاء، أي: نفذ قضاؤه ووعيده في أهل الشقاء، أو هي قوله للملائكة: ﴿لأَملأَنَّ جهنم من الجَنَّة والناس أجمعين﴾؛ أي من أهل العصيان منهما، لا من جميعهما[1].

قال ابن عاشور: لما كان النعي على الأمم الذين لم يقع فيهم من ينهون عن الفساد فاتبعوا الإجرام، وكان الإخبار عن إهلاكهم بأنه ليس ظلما من الله وأنهم لو كانوا مصلحين لما أُهلكوا، لما كان ذلك كله قد يثير توهم أن تعاصي الأمم عما أراد الله منهم خروج عن قبضة القدرة الإلهية أعقب ذلك بما يرفع هذا التوهم بأن الله قادر أن يجعلهم أمة واحدة متفقة على الحق مستمرة عليه كما أمرهم أن يكونوا.

ولكن الحكمة التي أقيم عليها نظام هذا العالم اقتضت أن يكون نظام عقول البشر قابلا للتطوح بهم في مسلك الضلالة أو في مسلك الهدى على مبلغ استقامة التفكير والنظر والسلامة من حجب الضلالة، وأن الله تعالى لما خلق العقول صالحة لذلك جعل منها قبول الحق بحسب الفطرة التي هي سلامة العقول من عوارض الجهالة والضلال وهي الفطرة الكاملة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [سورة البقرة:213]، لم يدخرهم إرشادا أو نصحا بواسطة الرسل ودعاة الخير وملقنيه من أتباع الرسل، وهم أولو البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض.

فمن الناس مهتد وكثير منهم فاسقون ولو شاء لخلق العقول البشرية على إلهام متحد لا تعدوه كما خلق إدراك الحيوانات العجم على نظام لا تتخطاه من أول النشأة إلى انقضاء العالم، فنجد حال البعير والشاة في زمن آدم عليه السلام كحالهما في زماننا هذا، وكذلك يكون إلى انقراض العالم.

فلا شك أن حكمة الله اقتضت هذا النظام في العقل الإنساني لأن ذلك أوفى بإقامة مراد الله تعالى من مساعي البشر في هذه الحياة الدنيا الزائلة المخلوطة، لينتقلوا منها إلى عالم الحياة الأبدية الخالصة إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فلو خلق الإنسان كذلك لما كان العمل الصالح مقتضيا ثواب النعيم ولا كان الفساد مقتضيا عقاب الجحيم، فلا جرم أن الله خلق البشر على نظام من شأنه طريان الاختلاف بينهم في الأمور، ومنها أمر الصلاح والفساد في الأرض وهو أهمها وأعظمها ليتفاوت الناس في مدارج الارتقاء ويسموا إلى مراتب الزلفى

---

(1) البحر المديد:84/3

فتتميز أفراد هذا النوع في كل أنحاء الحياة حتى يعد الواحد بألف ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: 37].

وهذا وجه مناسبة عطف جملة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ على جملتي ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة هود:118] ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1].

وقال أيضا: ومعنى كونها واحدة أن يكون البشر كلهم متفقين على اتباع دين الحق كما يدل عليه السياق، فآل المعنى إلى: لو شاء ربك لجعل الناس أهل ملة واحدة، فكانوا أمة واحدة من حيث الدين الخالص.

وفهم من شرط "لو" أن جعلهم أمة واحدة في الدين منتفية، أي منتف دوامها على الوحدة في الدين وإن كانوا قد وجدوا في أول النشأة متفقين فلم يلبثوا حتى طرأ الاختلاف بين ابني آدم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [سورة يونس:19]؛ فعلم أن الناس قد اختلفوا فيما مضى فلم يكونوا أمة واحدة، ثم لا يدري هل يؤول أمرهم إلى الاتفاق في الدين فأعقب ذلك بأن الاختلاف دائم بينهم لأنه من مقتضى ما جبلت عليه العقول.

ولما أشعر الاختلاف بأنه اختلاف في الدين، وأن معناه العدول عن الحق إلى الباطل، لأن الحق لا يقبل التعدد والاختلاف، عقب عموم ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ باستثناء من ثبتوا على الدين الحق و لم يخالفوه بقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [سورة هود:119]، أي فعصمهم من الاختلاف.

وفهم من هذا أن الاختلاف المذموم المحذر منه هو الاختلاف في أصول الدين الذي يترتب عليه اعتبار المخالف خارجا عن الدين وإن كان يزعم أنه من متبعيه، فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمة قصمه وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكل وسيلة من وسائل الحق والعدل بالإرشاد والمجادلة الحسنة والمناظرة، فإن لم ينجع ذلك فبالقتال كما فعل أبو

---

(1) التحرير والتنوير:349/11

بكر –رضي الله عنه– في قتال العرب الذين جحدوا وجوب الزكاة، وكما فعل علي –كرم الله وجهه– في قتال الحرورية الذين كفروا المسلمين. وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف.

وأما تعقيبه بقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فهو تأكيد بمضمون ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾. والإشارة إلى الاختلاف المأخوذ من قوله: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾، واللام للتعليل لأنه لما خلقهم على جبلة قاضية باختلاف الآراء والنزعات وكان مريدا لمقتضى تلك الجبلة وعالما به كما بيناه آنفا كان الاختلاف علة غائية لخلقهم، والعلة الغائية لا يلزمها القصر عليها بل يكفي أنها غاية الفعل، وقد تكون معها غايات كثيرة أخرى فلا ينافي ما هنا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] لأن القصر هنالك إضافي، أي إلا بحالة أن يعبدوني لا يشركوا، والقصر الإضافي لا ينافي وجود أحوال أخرى غير ما قصد الرد عليه بالقصر كما هو بين لمن مارس أساليب البلاغة العربية.

وتقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ليس للقصر بل للاهتمام بهذه العلة، وبهذا يندفع ما يوجب الحيرة في التفسير في الجمع بين الآيتين.

ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة هود:119] لأن قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [سورة هود:119] يؤذن بأن المستثنى منه قوم مختلفون اختلافا لا رحمة لهم فيه، فهو اختلاف مضاد للرحمة، وضد النعمة النقمة فهو اختلاف أوجب الانتقام[1].

ولذا كان من أعظم منن الله على عباده هو اجتماعهم على الحق وسيرهم عليه، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:103]، مع ذلك فقد أخبر تعالى أن الاختلاف لا بد من وقوعه ليميز الله الحق من الباطل، فيضل من يشاء عدلًا، ويهدي من يشاء فضلًا، فتظهر من آثار حكمه القدرية نظير ما أظهر لعباده من حكمه الشرعية، قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس

(1) التحرير والتنوير:350/11

أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾.

فالمرحوم من عباد الله من لا يوجد الخلاف بينهم: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [سورة هود:119] وأعظم الاختلاف وأشده ما كان عن علم وبصيرة إذ أن مقتضى العلم الاجتماع على الحق فإذا حصل الاختلاف فلا يكون إلا ببغي وظلم ظاهر بين، قال تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ [البينة:4-5]

ومن هذا المنطلق فإن اختلاف أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- في أمر من أمور الديانة لا يكون إلا مذمومًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران:105] ولولا أنه مذموم لما حذرهم منه ونهاهم عنه لاسيما وأن بيانه -صلى الله عليه وسلم- أكمل البيان وأظهره مما لا يجعل مجالًا للاختلاف كما قال -صلى الله عليه وسلم-: «تركتكم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك» وقال ابن مسعود: ما ترك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طائرًا يطير في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا، وهو كناية عن تمام البيان وكمال وضوحه وظهوره بحيث لم يتبق لأحد بعده حجة أو برهان.

ومقتضى النهي عن الاختلاف الأمر بالاتفاق والاجتماع على الحق، قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[1].

ينبغي أن يعرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين

أحدهما (الإرادة الكونية) وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن» وهذه الإرادة في مثل قوله ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:125] وقوله ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:34] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:253] وقال

(1) الاختلاف في أصول الدين أسبابه وأحكامه:3/1

تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف:39] وأمثال ذلك.

وهذه الإرادة هي مدلول اللام في قوله: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾. قال السلف خلق فريقا للاختلاف وفريقا للرحمة، ولما كانت الرحمة هنا الإرادة وهناك كونية وقع المراد بها فقوم اختلفوا وقوم رحموا.

وأما النوع الثاني فهو (الإرادة الدينية الشرعية) وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:185] وقوله تعالى ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:6] وقوله: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾ [النساء:26-28] فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة[1].

قال الإمام الباقلاني: اعلم أنه لا يجري في العالم إلا ما يريده الله تعالى، وأنه لا يؤمن مؤمن ولا يكفر كافر إلا بإرادة الله تعالى، ولا يخرج مراد عن مراده، كما لا يخرج مقدور عن قدرته.

وقالت المعتزلة ومن وافقهم من أهل البدع: إن الله تعالى لا يريد إلا الطاعة والإيمان، فأما من كفر وعصى فقد أتى بما ليس بمراد الله تعالى.

وقالوا: إن كل واحد يفعل من الأفعال ما لا يريده الله تعالى، حتى انتهى بهم القول إلى: أن البهائم تفعل أفعالًا لم يردها تعالى، وأنه لو أراد فعل غيرها منهم لم يحصل ذلك له وامتنع عليه، سبحانه وتعالى عما يشركون.

---

(1) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية:529/2

ونحن براء إلى الله تعالى من جهلهم وبدعهم، ونقول: إن مذهب أهل السنة والجماعة الذي لدين الله تعالى به أنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن ولا يطيع طائع، ولا يعص عاص، من أعلى العلى إلى ما تحت الثرى إلا بإرادة الله تعالى، وقضائه ومشيئته.

ويدل على صحة ما قلناه الكتاب والسنة وإجماع الأمة وأدلة العقل.

فأما الكتاب: فأكثر من أن يحصى، لكن نذكر منها ما فيه الكفاية، ويدل العاقل على نظائر من أدلة الكتاب، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ وهذه الآية أوضح دليل وأقوم حجة من وجوه عدة:

- أحدها: أنه أخبر تعالى أنه لو شاء وأراد لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الإيمان أو على الكفر والضلال، وهذا خلاف قول المعتزلة، لأنهم يقولون: إنه ما أراد إلا كونهم أمة واحدة على الإيمان، فبطل قولهم ببعض هذه الآية.

- الثاني: أنه قال ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ فأخبر تعالى أنه خلقهم لما أراد من اختلافهم، وأنه لم يرد أن يكونوا أمة واحدة.

- الثالث: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [سورة هود:119] فأخبر تعالى أن منهم من رحمه وأراد رحمته دون غيره، فصح أنه لا يكون من عباده ولا يجري في ملكه إلا ما أراده وقضاه وقدره[1].

---

(1) الإنصاف، الإمام الباقلاني:61/1

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام:

{أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [نوح:4/3]

الأجل عبارة عن الوقت الذي ينقطع فيه فعل الحياة، كما أن أجل الدين عبارة عن الوقت الذي يحل فيه الدين، والمقتول والميت أجلهما عند خروج روحهما، وقوله: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ يعني من الشرك ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ يعني والله أعلم بغير عقوبة[1].

﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي إلى نهاية آجالكم فلا يعاجلكم بالعقوبة ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي بعذابكم إذا جاء لا يؤخر ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ أي لو علمتم ذلك لأنبتم إلى ربكم فتبتم إليه واستغفرتموه.

قال ابن عاشور: وأما قوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فهو وعد بخير دنيوي يستوي الناس في رغبته، وهو طول البقاء فإنه من النعم العظيمة لأن في جبلة الإنسان حب البقاء في الحياة على ما في الحياة من عوارض ومكدرات. وهذا ناموس جعله الله تعالى في جبلة الإنسان لتجري أعمال الناس على ما يعين على حفظ النوع. قال المعري:

وكل يريد العيش والعيش حتفه... ويستعذب اللذات وهي سمام

والتأخير: ضد التعجيل، وقد أطلق التأخير على التمديد والتوسيع من أجل الشيء. وقد أشعر وعده إياهم بالتأخير أنه تأخير مجموعهم، أي مجموع قومه لأنه جعل جزاء لكل من عبد الله منهم واتقاه وأطاع الرسول، فدل على أنه أنذرهم في خلال ذلك باستئصال

---

(1) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، البيهقي: 171/1

القوم كلهم، وأنهم كانوا على علم بذلك كما أشار إليه قوله: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [نوح: 1]، وكما يفسره قوله تعالى في سورة هود ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:38] أي سخروا من الأمر الذي يصنع الفلك للوقاية منه. وهو أمر الطوفان، فتعين أن التأخير المراد هنا هو عدم استئصالهم. والمعنى: ويؤخر القوم كلهم إلى أجل مسمى، وهو آجال إشخاصهم وهي متفاوتة.

والأجل المسمى: هو الأجل المعين بتقدير الله عند خلقه كل أحد منه، فالتنوين في ﴿أجل﴾ للنوعية، أي الجنس، وهو صادق على آجال متعددة بعدد أصحابها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [الحج:5]

ومعنى ﴿مُسَمًّى﴾ أنه محدد معين وهو ما في قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام:2] فالأجل المسمى: هو عمر كل واحد* المعين له في ساعة خلقه المشار إليه في الحديث "أن الملك يؤمر بكتب أجل المخلوق عندما ينفخ فيه الروح"* واستعيرت التسمية للتعيين لشبه عدم الاختلاط بين أصحاب الآجال*

والمعنى: ويؤخركم فلا يعجل بإهلاككم جميعا فيؤخر كل أحد إلى أجله المعين له على تفاوت آجالهم* فمعنى هذه الآية نظير معنى آية سورة هود [3]* ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهي على لسان محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ يحتمل أن تكون هذه الجملة تعليلا لقوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي تعليلا للربط الذي بين الأمر وجزائه من قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ الخ لأن الربط بين الأمر وجوابه يعطي بمفهومه معنى: إن لا تعبدوا الله ولا تتقوه ولا تطيعوني لا يغفر لكم ولا يؤخركم إلى أجل مسمى، فعلل هذا الربط والتلازم بين هذا الشرط المقدر وبين جزائه بجملة ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، أي أن الوقت الذي عينه الله لحلول العذاب بكم إن لم تعبدوه و لم تطيعون إذا جاء

إبانه باستمراركم على الشرك لا ينفعكم الإيمان ساعتئذ، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس:98]، فيكون هذا حثا على التعجيل بعبادة الله وتقواه.

فالأجل الذي في قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [سورة نوح:4] غير الأجل الذي في قوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ويناسب ذلك قوله عقبه ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة نوح:4] المقتضي أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة المتعلقة بآجال الأمم المعينة لاستئصالهم، وأما عدم تأخير آجال الأعمار عند حلولها فمعلوم للناس مشهور في كلام الأولين.

وفي إضافة ﴿أجل﴾ إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [سورة نوح:4] إيماء إلى أنه ليس الأجل المعتاد بل هو أجل عينه الله إنذارا لهم ليؤمنوا بالله. ويحتمل أن تكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن تحديد غاية تأخيرهم إلى أجل مسمى فيسأل السامع في نفسه عن علة تنهية تأخيرهم بأجل آخر فيكون أجل الله غير الأجل الذي في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

ويحتمل أن تكون الجملة تعليلا لكلا الأجلين: الأجل المفاد من قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [نوح: 1] فإن لفظ ﴿قبل﴾ يؤذن بأن العذاب مؤقت بوقت غير بعيد فله أجل مبهم غير بعيد، والأجل المذكور بقوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيكون أجل الله صادقا على الأجل المسمى وهو أجل كل نفس من القوم. وإضافته إلى الله إضافة كشف، أي الأجل الذي عينه الله وقدره لكل أحد.

وبهذا تعلم أنه لا تعارض بين قوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وبين قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ إما لاختلاف المراد بلفظي "الأجل" في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، وإما لاختلاف معنيي التأخير في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ فانفكت جهة التعارض[1].

---

(1) التحرير والتنوير:178/29

قد يشكل على بعض الناس مواضع في كتاب الله وأحاديث رسول الله صلى الله وسلم، فيقول بعضهم: إذا كان الله علم ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب فما معنى قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:39].

وإذا كانت الأرزاق والأعمال والآجال مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما توجيهكم لقوله -صلى الله عليه وسلم-: «من سرَّه أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه».

وكيف تفسرون قول نوح لقومه: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون - يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ [نوح:3-4].

وما قولكم في الحديث الذي فيه أن الله جعل عمر داود عليه السلام مائة سنة بعد أن كان أربعين سنة.

والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوع جرى به القدر وكتب في أم الكتاب، فهذا لا يتغير ولا يتبدل، ونوع أعلم الله به ملائكته فهذا هو الذي يزيد وينقص، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ [الرعد:39]. وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الأمور على ما هي عليه.

ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص، وكذلك الرزق بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون له رزقًا وأجلًا، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه ينقص له منهما.

"والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد، فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلًا، فإن وصل رحمه، فيأمره بأن يزيد في أجله ورزقه. والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم و لم يتأخر".

يقول ابن حجر العسقلاني: «الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل، والذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي، فيقع فيه المحو والإثبات، كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات والعلم عند الله»[1].

---

(1) القضاء والقدر:39/1

قال الزمخشري تبعًا للمعتزلة: يؤخركم إن آمنتم إلى آجالكم، وإن لم تؤمنوا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت، وهذا على قولهم بالأجلين. وأهل السنة يأبون هذا، فإن الأجل عندهم واحد محتوم، والله تعالى أعلم[1].

قال ابن عطية: ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ مما تعلقت المعتزلة به في قولهم أن للإنسان أجلين، قالوا: لو كان واحدًا محددًا لما صح التأخير، إن كان الحد قد بلغ، ولا المعاجلة إن كان لم يبلغ، قال: وليس لهم في الآية تعلق، لأن المعنى: أن نوحًا عليه الصلاة والسلام لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل، ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكم، لكن قد سبق في الأزل أنهم إما ممن قضى له بالإيمان والتأخير، وإما ممن قضى له بالكفر والمعاجلة.

ثم تشدد هذا المعنى ولاح بقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [سورة نوح:4]، وجواب لو محذوف تقديره: لو كنتم تعلمون، لبادرتم إلى عبادته وتقواه وطاعتي فيما جئتكم به منه تعالى.

ولما لم يجيبوه وآذوه، شكا إلى ربه شكوى من يعلم أن الله تعالى عالم بحالة مع قومه لما أمر بالإنذار فلم يجد فيهم[2].

قال ابن عاشور: أما مسألة تأخير الآجال والزيادة في الأعمار والنقص منها وتوحيد الأجل عندنا واضطراب أقوال المعتزلة في هل للإنسان أجل واحد أو أجلان فتلك قضية أخرى ترتبط بأصلين: أصل العلم الإلهي بما سيكون، وأصل تقدير الله للأسباب وترتب مسبباتها عليها.

فأما ما في علم الله فلا يتغير قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:11] أي في علم الله، والناس لا يطلعون على ما في علم الله.

وأما وجود الأسباب كلها كأسباب الحياة، وترتب مسبباتها عليها فيتغير بإيجاد الله مغيرات لم تكن موجودة إكراما لبعض عباده أو إهانة لبعض آخر. وفي الحديث "صدقة المرء

---

(1) البحر المديد:189/3

(2) تفسير البحر المحيط:355/10

المسلم تزيد في العمر". وهو حديث حسن مقبول. وعن علي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- "من سره أن يمد في عمره فليتق الله وليصل رحمه". وسنده جيد

فآجال الأعمار المحددة بالزمان أو بمقدار قوة الأعضاء وتناسب حركتها قابلة للزيادة والنقص. وآجال العقوبات الإلهية المحددة بحصول الأعمال المعاقب عليها بوقت قصير أو فيه مهلة غير قابلة للتأخير وهي ما صدق قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [سورة نوح:4] وقد قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:39] على أظهر التأويلات فيه وما في علم الله من ذلك لا يخالف ما يحصل في الخارج.

فالذي رغب نوح قومه فيه هو سبب تأخير آجالهم عند الله فلو فعلوه تأخرت آجالهم وبتأخيرها يتبين أن قد تقرر في علم الله أنهم يعملون ما يدعوهم إليه نوح وأن آجالهم تطول، وإذ لم يفعلوه فقد كشف للناس أن الله علم أنهم لا يفعلون ما دعاهم إليه نوح وأن الله قاطع آجالهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم "اعملوا فكل ميسر إلى ما خلق إليه" ، وقد استعصى فهم هذا على كثير من الناس فخلطوا بين ما هو مقرر في علم الله وما أظهره قدر الله في الخارج الوجودي[1].

قال الشيخ مصطفى العدوي: قوله تعالى: (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) يرد عند هذه الآية مسألة وهي: هل عبادة الله تعالى وتقواه سبب في طول العمر؟ وهل يزيد العمر عن الحد الذي حده الله سبحانه وتعالى بشيء من الأسباب؟

إن مسألة الزيادة في العمر قد ورد فيها نصوص مختلفة، فقد وردت نصوص تفيد أن العمر قد يطول ببعض الأعمال، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (من سره أن يبسط له في رزقه -أي: يوسع له في رزقه- وينسأ له في أثره -أي: يؤخر له في عمره- فليصل رحمه)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (صلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار، يعمران الديار ويزيدان في الأعمار).

ووردت أدلة أخرى في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرها يفيد معنىً آخر، فقد قال الله سبحانه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة

---

(1) التحرير والتنوير:179/29

الرعد:38]، وقال الله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة يونس:49] وفي الصحيح أن أم المؤمنين أم حبيبة -رضي الله تعالى عنها- قالت: (اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها الرسول -صلى الله عليه وسلم-: لقد سألتِ الله آجالًا مضروبة، وأرزاقًا مقسومة، لن يقدم شيء منها ولن يؤخر)، أو بنحوه.

وفي حديث التخلق قال -صلى الله عليه وسلم-: (ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد).

فاختلف العلماء في الجمع بين هذه النصوص على أقوال:

القول الأول: أن لكل أجل كتابًا، ولكل شخص عمرًا قدر له، ولكن إذا عمل الشخص الأعمال الواردة في حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- زيد له في عمره، فالجمع بين النصوص أن معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس:49] أي: إذا جاء أجلهم الذي قدر لهم لو لم يصلوا الرحم، فإذا وصلوها زيد في أعمارهم؛ لحديث النبي صلى الله عليه وسلم. وأشار إلى هذا المعنى الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى، ولم يطل في هذا المقام. فهذا قول مبنيٌ على ظاهر الأدلة، وهو أن الشخص له عمر مكتوب، لكن إذا وصل الرحم زيد له في عمره.

القول الثاني: أن المراد بطول العمر هو البركة في العمر، فيذكر بخير بعد مماته.

القول الثالث: أن الأجل أجلان: أجل أعلمه الله تعالى لملائكته أن إذا عمل عبدي كذا وكذا فاكتبوا له من العمر كذا وكذا، وإذا عمل كذا وكذا فاكتبوا له من العمر كذا وكذا، والله تعالى يعلم بالذي سيختاره العبد، وأثبت في اللوح المحفوظ ما سيختاره العبد، وهذا المثبت في اللوح المحفوظ هو الأجل الذي عند الله تعالى في أم الكتاب، والمحو والإثبات يكون في الكتاب الذي بين أيدي الملائكة.

ومن هذا ما ورد في شأن موسى عليه السلام حين جاءه ملك الموت فلطمه ففقأعينه -كما في صحيح البخاري رحمه الله- فرجع إلى الله تعالى، ثم بعد ذلك قبض روح موسى صلى الله عليه وسلم.

فالله يعلم بالذي دار كله، وأثبت عنده منتهى الأمر الذي سيصدر من موسى، والوقت الذي ستقبض فيه روح موسى، فأثبت هذا في أم الكتاب، وأما الذي تغير فهو الذي بيد الملك.

وإلى هذا أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بعض اختياراته، وثم أقوال أُخر.

وهذه المسألة وصفها العلماء بأنها من المسائل الشائكة التي ينبغي أن تجرى على ظاهرها كسائر الأمور مثلها؛ فهي كمسألة الرزق، إذ الأجل والرزق مكتوبان، فمكتوب لك وأنت في بطن أمك كم سترزق، فإذا سعيت والتمست الأسباب الصحيحة لطلب الرزق في الظاهر فإنك سترزق، وإذا نمت وتركت العمل، فلن يأتيك رزق ذلك اليوم، فإن آمنت بأن الرزق مقدر ومع ذلك تسعى في الأخذ بالأسباب، فكذلك تؤمن بأن الأجل مكتوب، وعليك أن تسعى بما يزيد في أجلك كما تسعى بما يزيد في رزقك.

فالإيمان قائم أن الأجل مقدر، وعلمه عند الله تعالى، مع التدين بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (من سره أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في عمره، فليصل رحمه)، فعليك أن تصل الرحم، كما أن عليك أن تخرج لطلب الرزق، ومع ذلك تترك الباقي إلى المولى سبحانه وتعالى، كسائر المسائل المتعلقة بالقدر. والله أعلم.

ومن العلماء من قال: إن قوله تعالى: ﴿يؤخركم إلى أجل مسمى﴾ المراد بها: يدفع عنكم العذاب فلا تعذبون في الحياة الدنيا، وهذا كالأول، فإن العذاب مقدر، فإن أطعت الله رفع عنك العذاب، كما إذا وُصِلَتِ الرحمُ طالت الأعمار[1].

(1) سلسلة التفسير، مصطفى العدوي:7/75

المحتويات

مقدمة 3
أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ 4
إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ 10
عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا 14
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ 19
وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ 23
وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ 27
وَرْدَةً كَالدِّهَانِ 33
وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ 37
وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ 40
وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ 43
أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ 47
// صِفَةُ السُّترة في الصَّلاة؟ 60
// يتحمَّلُ الإمامُ عن المأمومِ السُّترةَ 62
// ولا يجوزُ المرورُ بين المُصلِّي والسُّترة: 62
– حُكْمُ المرورِ بين يَدَيِ المُصَلِّي في المسجِدِ الحرامِ 63
** هيئة الخرور إلى السجود: 63
** أكل لحم الإبل ينقض الوضوء: 64
** ما الحكمة من الوضوء من لحم الإبل؟ 68
** أكل ما سوى اللحم من أجزاء الإبل كالكبد، هل ينقض الوضوء؟ 70
إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ 74
وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً 81
شبهات وردود 85
نصيحة 86
وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا 88

وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ 95
وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ 102
وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى 109